روائع الأدب العربي
(الأعمال النثرية)

عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

عبقرية المسيح

عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(روائع الأدب العربى)

(الأعمال النثرية)

عبقرية المسيح

عباس محمود العقاد

لوحة الغلاف

للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

المشرف العام

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » .

« سورة النور »

« وهو الذى انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » .

« سورة الانعام »

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون » .

« سورة النحل »

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين » .

« سورة التين »

« فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا » .

« سورة عبس »

هـــذه هى الشجرة المباركة فى التنزيل : شجرة الزيتون . شجرة البحر الخالد . شجرة الحوض الذى نبتت عليه حضارة الانسان ودارت حوله ، ولا تزال تدور .

عالية تعلو خمس قامت وتزداد .

باقية تبقى مخسة قرون ، ثم لا تصير الى نفاد .

كريمة تؤتى من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام ، سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الاهاب وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب واعواد المنابر ، ومن ورقها اكاليل الابطال وتحيات البشائر ، وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلبا لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتتشابه بركتها عليهم كرة اخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

بوركت فى وحى المعابد والضمائر ، وبوركت فى رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس امنيـــة لا يرمزون لها بســـماتها واسمائها ، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها الى الضياء،ورمزوا بها الىالسلام، ورمزوا بها الىالخير والرخاء،وتزدوا منها فى البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح فى محارب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا اليها باسم من اقدس الأسماء ، هو اسم « السيد المسيح » .

لأمر مانبتت فى فلسطين ، وانتشرت منها فى منابت العالمين ، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين الى غايتها من البلاغ المبين .

ولو لم تكن « للزيتونة » الا أن هذا الاسم المبارك مردود الى مسحتها وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

الباب الأول

المسيح في التاريخ

يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الايمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر على عقائد القبائل الحمر فى القارة الامريكية ان القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة فى الامريكتين ، وليس فى هذا عجب . لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحيـــاة الإنسانية يبثها الخالق فى ضمير خلقه ، ويفتح لهم بها ســبيل الاجتهاد فى طلب الكمال والخلاص من العيوب .

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة اليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور (Ipuwer) ان المخلص الموعود « يلقى بردا على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه »(١) .

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » الى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من اله النور كل الف سنة ينبعث فى جسد انسان ، وقيل أنه هو زرادشت رســـول المجوسية الأكبر الذى يرجعون اليه بتفصيل الاعتقاد فى اله النور واله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة الى ما بعد اليهودية والمسيحية والاسلام واشار اليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه ابراهيم بن سيار النظـــام حيث قال : « ان السلف زعموا ان كل الف عام يظهر رجل لا نظير له ، فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه » .

---

(١) صفحة ٧٩ من كتاب « نور من الشرق القديم » لمؤلفه جاك فنيجان .

اما الايمان بظهور رسول الهى يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها او التعليقات عليها ، فى التلمود والهجادا وما اليها .

ومرجع التسمية نفسها الى الشعائر التى وردت فى سفر التكوين وسفر الخروج وما يليهما من أسفار الأنبياء . فان المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، واول ما ورد ذلك فى الأصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب انه « بكر فى الصباح واخذ الحجر الذى وضعه تحت راسه وأقامه عمودا وصب زيتا على راسه ودعا ذلك المكان بيت ايل — اى بيت الله » .

وجاء فى الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج ان « الرب كلم موسى قائلا : .. وانت تأخذ افخر الأطياب .. دهنا مقدسا للمسحة .. وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وتقدسها فتكون قدس اقداس ، وكل ما مسها تكون مقدسا . وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم .. » .

وكان الاحبار والأنبياء يسمون من اجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء فى الاصحاء السادس عشر من سفر الأيام : « لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا انبيائى » .

وكان مسح الملوك اول شعائر التتويج والمبايعة فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء .

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازا على كل مختار منذور ، فسمى كورش الفارسى « مسيحا » كما جاء فى الاصحاح الخامس والأربعين من سفر اشعيا، لأن الله اخذ بيده لاهلاك أعداء الاسرائيليين

واقامة بناء الهيكل من جديد ، وسمى الشعب كله مسيحا كما جاء فى المزامير وكتاب النبى حبقوق ، ومنه « خرجت لخــلاص شعبك : خلاص منسيحك » بمعنى الشعب المختار .

وتكررت فى كتب « الهجادا » او كتب التعاليم الاشارة الى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف وتارة على موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا فى صورة رسول هاد او صورة شعب مبرور ، لانهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام .

وقد كان الايمان بانتظار المسيح على اشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الاول ، فردد الشعب الاسرائيلى وعود انبيائه بعودة الملك الى امير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الامم لسلطانه ، ثم ترقى الايمان « بالمسيح » بمعنى الملك الى الايمان بالمسيح بمعنى المختار او المنذور للهداية والصــلاح ، وبلغ هذا التحول غايته فى بعض النبوءات ومنها نبوءة اشعيا التى امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان ، الى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره فى سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء فى الاصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر انه « محتقر ومخذول من النــاس ورجل اوجاع واحزان » .. وجاء فى الاصحاح التاسع من سفر زكريا انه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن اتان » ... واتفقت اقوال كثيرة على انه يأتى مسبوقا برائد يعلن مجيئه ، وهو النبى ايليا (الياس) منبعثا من الاموات .

وقد كان هذا الارتقاء فى فهم الرسالة المسيحية يصاحب اطوار

الشعب الاسرائيلى فى تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء فى المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل فى استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء الى « المسيح الهادى » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا أن الأمل فى الخــروج عليهم بقوة السلاح بعيد عســير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهــداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين فى حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل فى قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع فى انتظار الرسول الملخص والبعثــة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حينا وتفترقان بل تتناقضان جملة أحيان . فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول الســلطان القــومى كله اليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين الى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية ، ومن الناحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة الى اليقظة الروحية جنوحا متمردا على القديم مؤمنا بانتظــار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد .

النبوة بين بني اسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة فى الشعب الاسرائيلى منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله وأسباطه ، فان أحوال النبوءة فى ذلك الشعب لم تكن على الصورة التى تسبق الى خواطرنا من النظر فى تواريخ كبار الأنبياء ، وتورايخ الفترات التي مضت بين عهودهم فى الأمم المتعددة .

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ونعلم عن يقين أن الذى يقدم على ادعاء النبوءة فى عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن اتباع الأديان يؤمنون بختام النبــوءات أو يؤمنون بان النبى الجـــديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه أن يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم واقوال أنبيائهم ، أما المنكرون والملحدون فهم لا يقبلون دعوى النبوءة فى هذا العصر ولا فى غيره من العصور .

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين ابراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالـــت حتى حسبت بمئات السنين ، ففى اعتقادنا على الدوام أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر فى كل جيل ولا يراه الانسان فى عمره مرتين .

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء أنهم اقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقا لا يســـهل تذليلها ، لأنهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاما وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصورا بعد عصور . واقاموا عليها سلطان ذوى السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين . كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام ؛ فمن تولى

الهداية الى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقا لا يقبلون اقتحامه من احد ، ولا يرون احداً يقتحمه عليهم الا اعنتوه ، واقاموا له العراقيل .

أما احوال النبوءة فى بنى اسرائيل فينبغى ان نتصورها على غير هذا النحو لانها تخالفه من جملة وجوه .

فاول ما هنالك من الفوارق أن الأنبياء فى بنى اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتمـا لزاما ان تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم فى العصر الواحد أربعمائة نبى كما جاء فى سفر الملوك الأول حيث جمع ملك اسرائيل « الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم الذهب الى رامة جلعاد للقتـال ٣ »

وخير ما ورد فى وصف مكان الأنبياء بين بنى اسرائيل قول النبى (محمد) صلوات الله عليه : « علمـاء امتى كانبياء بنى اسرائيل » .

فقد كان عمل النبى فى شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه فى الأمة الاسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بها الخاصة أو العامة فى وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم انكارا لقيـام الأنبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التى رسمها لهم من قبل ابراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم ان الله وعد اسرائيل « أن يقيم انبياء مثله ويجعل كلامه فى افواههم (١٨ تثنية) وان بعض هؤلاء الانبياء قد يتحدث الى النـاس بكلام غير كلام الوحى فعليهم أن ينبذوه » .. « وان قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فاعلم ان ما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب .. فلا تخف منه » .

بل يجوز أحيانا أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع الى وصايا الأنبياء اذا دعوه الى عبادة رب غير اله اسرائيل .. فاذا قام فى وسطك نبى أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة . فلا نسمع لكلام ذلك النبى أو صاحب الرؤيا أن دعاك الى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية ... (١٣ تثنية) .

ولم تكن النبوءة باذن من ذوى السلطان* أمراء كانوا أو كهانا أو شيوخا مطاعين فى القبيلة ، بل يمتلىء يقين الانسان بالايحاء اليه فيمضى فى تبليغ وحيه ولا يقوى أحيانا على كف لسانه كما قال ارميا : « قد أقنعتنى يا رب فاقتنعت والححت على فغلبت . صرت أضحوكة وهزءا .. وكلمة الرب جللتنى بالعار والسخرية .. فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد ، فكان فى قلبى كأنه نار محرقة محصورة فى عظامى .. فلم تكن لى طاقة بالسكوت » (٢٠ ارميا) .

وكثيرا ما كان النبى ينحى على زملائه فى عصره ويخالفهم فى تفسير النذر من ربه ، كما قال ارميا « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق الى الأرض كلها .. فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم » .

أو كما قال ميخا لملك اسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل الروح كذلك فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء » .

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له : من أين عبر روح الرب منى ليكلمك » .

وكان المعهود فى الأنبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء اسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول

العيش ويلتمس المنازه والانهار كما قال دنيال : « لم آكل طعاما شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة اسابيع ، وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول اذ كنت الى جانب النهر العظيم بدجلة رفعت عينى ونظرت »

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء فى سفر صمويل الأول : « انك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب » (٩ صمويل أول) .

أو كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « فقال اليشع حى رب الجنود .. الآن فأتونى بعواد » . فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب » .

ولكن الأغلب مع هذا انهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون فى جوانب الأنهار « عند نهر خابور انفتحت فرأيت رؤى الله » (١ حزقيال) .

ولا يمتنع عندهم ان يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين انسانا من غير الأنبياء ومن غير شعب اسرائيل كما الهم أبيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين ..

وكان الغالب على سامعى النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحى من الله ، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلا على اليقين والايمان ، وربما اذن للنبى أن يطلب الآية ويمعن فى طلبها فيرى من الأدب الا يجرب ربه بدليل هذه الآيات (٧ اشعيا) .

على أنهم كانوا يلجأون الى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الاقامة لعلمهم انهم اقرب الى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن انظار الدنيويين المنغمسين فى هموم الحياة ، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحى صوتا عاليا

ومن كان يحسبه الهاما او هدية او رؤيا صالحة ، وغالبا ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلما خرج الشعب عن الاقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الأنبياء السابقين ، فلم تكن النبوءة اقتحاما ولا بدعة مستغربة ، ولم يكن فيها خطر على النبى الا حين يتصدى للمولوك والامراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد الى التنكيل بالنبى فى هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وانه لم يأت من عند الله ، اذ كان موت النبئ الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه .

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها ، وان الانسان المتهيىء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها والحت عليه أياما بعد أيام ، حتى يصبح السكوت فى حكم سريرته عصيانا لأمر الله ونكولا عن ارادته ، ومتى استقر فى سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف فى الايمان فاسلم الأمور عنده حين تجيش نفسه بروح الله أن ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدى الناس اليه كما يشاء .

وفى عصر الميلاد . ذلك العصر الذى ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه — لاجرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخير المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر فى امتحانه ، خوفا من سهولة الدعوى على الأدعياء ، وخوفا من بطلان الرجاء فى ابان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم .

الطوائف اليهودية
في عصر الميلاد

كان العالم اليهودى فى العصر الذى ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه فى انتظار المسيح المخلص الموعود .

والتعريف بهذه الطوائف ضرورى لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التى سبقتها فى بيئات بنى اسرائيل .

وضرورى من جهة اخرى لأنه — فيما نرى — اقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جازوا الشك فى النصوص والروايات الى الشك فى وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه فى زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التى كانت معروفة فى عصر الميلاد ، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب فى ناحية من نواحيه . وكانت هذه التعديلات فى جملتها تثوب الى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لا بد لها من « شخصية » مستقلة عن هذه المذاهب جميعا ، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان .

ونكتفى من الطوائف الدينية التى كانت معروفة فى عصر الميلاد بخمس منها ؛ وهى طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسيين والغلاة والسامريين ؛ وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة فى تاريخ العصر بمزية من المزايا التى تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية .

فالصدوقيون هم فى دعواهم اتباع « صدوق » واسرته الذين تواترت الرويات بأنهم كانوا يتولون الكهانة فى عهد داود وسليمان .

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها ، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء .

وقد كانوا متشددين فى انكار البدع والتفسيرات . متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التى احتوتها التوراة وهى كتب موسى عليه السلام ، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع .

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم الى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقد كانوا أقرب اليهود الى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فى البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوما فى ذلك العصر ، وقد كان الشائع عنه يومئذ أنه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم فى الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم فى كل زمن ، فانهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسى وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان ، ويملى لهم فى هذه النزعة أنهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافا للطوائف الأخرى التى تؤمن بالبعث والحساب .

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين ، وهما « حنانيا » و « قيافا » .. ولم يكن فى ذلك عجب . لأن الصدوقيين جميعا يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يستريحون الى الثورة والانقلاب

وخلاصة الآداب الصدوقية أنهم حرفيون فى مسائل الدين

متوسعون فى مسائل المعيشة ، وانهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوى السلطان .

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هى طائفة الفريسيين ، وهى أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الأجانب ، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون فى مرتبة الرؤساء والوجهاء .

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة «الفرز» العربية فى لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون ، وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكما وتحقيرا لاعتقادهم انهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه الى خطاب الله لبنى اسرائيل جميعا كما يروونه فى الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلا : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى » .. فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون .

لهذا كانت تلازمهم فى بعض الأحيان صفات الادعاء والتعالى التى تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى ، وكان بعضهم هدفا لحملات السيد المسيح تنديدا بما يظهرونه من الثقة والكبرياء .

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التى كانوا يستنكرونها على خصومهم الصودقيين ، وكانوا يثورون على السلطان « الرسمى » حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع

الاجنبية ، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ، وينكرون فى الوقت نفسه عادات الاجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين .

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التى كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها ، فلما أمر الملك « انطيوخس » كاهن الهيكل أن يضحى فى مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا انفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى « بترونيوس » عجب من عنادهم فى مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها ، فسأل زعماءهم . كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم اكفاء لقوته ، فقالوا : نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم اننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة ابينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين لاثبات ما يقولون .

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم فى تعميم الشعائر التى كانت محصورة فى المحاريب هى التى دعتهم الى اقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة الى الكهان المرسومين ، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكل مقدس المراسم ... فكانوا على ميلهم الى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمى » اشد من المتشددين .

الا أن الغالب عليهم حين يبتعدون عن الأمور التى تتعرض لهذه النقائض انهم اقرب الى التصرف والقياس ، أو اقرب الى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك

يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون اقرب الى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب الى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير ، وقد كان انكار البعث والحياة الروحية اشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، ومن اجل هذا سبقوهم مراحل الى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح الملخص فى عالم الروح ، غير مقيد بشروط الصولة والصولجان .

واذا وصف الصدقيون على الاجمال بأنهم طبقة « الارستقراطيين » فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود فى ذلك العصر هم الفريسيون .

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون الى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم « هلل » الذى قدم الى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود فى معاملة الاجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم « شماى » وهو أقرب الى التحرج والتضييق ورد الراغبين فى دخول الدين من غير اليهود ، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة « ان الزيادة فى اللحم زيادة فى الدود » .. وشريعته فى المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهى الا تصيب أحدا بما تكره أن تصاب به ، وكل ما عدا ذلك من الاحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل ، وأما الحكيم شماى فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق ، وروى انه كان يحترف التجارة ليعيش من كسب عمله ، وان غيرته على القديم كانت اقوى من اقباله على التجديد والتصرف فى تأويل النصوص .

والقول الراجح بين المؤرخين ان معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من طائفة الفريسيين .

* * *

والطائفة الثالثة التى تقل عن هاتين الطائفتين فى العدد كثيرا وتساويها او تزيد عليها فى القوة والأثر هى طائفة الآسين او الاسينيين كما يكتبها رواة الاخبار عنها فى عصر الميلاد .

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين .

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة ، وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم ، لأنهم طائفة من صميم الأمة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها واسرارها وأوشكت أن تستقل عن « الهيكل » كله فى علاقتها بالدين والقومية ، ولولا انها تعترف بتقريب القرابين فى الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة « آسى » بمعنى الطبيب او النطاسى فى اللغة الارامية ، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية اليها ، ومن المعقول ان يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لانهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والاوراد ، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير .

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، واقتبست من المدارس الاسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغوراس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل .

وكان حراما عند ابناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الأمتعة والأقوات، وكانت الرهبانية غالبة عليهم الا من أذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة .

وكانوا ينتظمون فى النحلة على ثلاث درجات . درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم ، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة فى الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الأسرار ، ثم ينقل المريد الى درجةالواصلين ويقضى فيها سنتين ، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس فى يده ، كناية عن العمل الشاق ، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الاساتذة، منها الاغتسال وتلاوة بعض العهود ، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الامانة والمحافظة على سر المجاعة ، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة ، ويجوز فصل العضو بعد رسمه اذا حنث فى يمينه واتفق مائة من الاخوان على ادانته ، بل يجوز الحكم عليه بالموت اذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الايمان .

وهم يتطهرون من الحدث ، ويصلون عند الفجر ، ويحافظون على الراحة فى يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح فى ذلك اليوم ازالة الضرورات .

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة فهى فى مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق ، وأخبث منها حمل السلاح للقتال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس

والخيانة ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم؛ وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح ، وهو عالم سماوى فى أعلى الأثير يرتفع اليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت .

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الآهلة بالسكان أو فى الأحياء التى يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ .

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص . معتقدون أن الخلاص بعث روحانى يهدى الشعب حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم فى طلب الرضى من الله هو النبى عاموس الذى كان يعلم الشعب أن التقرب الى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب اليه بالذبائح والهدايا .

ولا يبعد أن يكون الغلاه أو الجليليون اتباع يهودا الجليلى فرقة متطرفة من فرق الآسين ، لانهم يسلكون مسلكهم فى التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ؛ وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات فى السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الاحصاء الذى صدر من « كرينياس » حاكم سورية واصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر ؛ أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة . وحجتهم أن طاعة القيصر من عبادة الأوثان ؛ وان احصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصرى فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة اليه وانتزعاه عنوة وانذر اخوانهما من يعيده الى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء فى سنة الاحصاء بقيادة

يهودا الجليلى ومات هو وابناؤه وذووه فى ابان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث ، فكانت تؤثر التقية والمدارة فى معاملة الثائرين ، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة الا اذا ضاقت بها سبل الحلم والأناة ..

* * *

والطائفة السامرية خليط من اليهود والاشوريين كانوا يقيمون فى مملكة اسرائيل القديمة ، يقال أنهم قبائل أشورية أرسلها ملوك بابل الى فلسطين ليسكنوها فى أماكن القبائل اليهودية التى نفيت الى ما بين النهرين وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال انهم اختلطوا باليهود الذين بقوا فى بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية الى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط فى السكن والنسب اختلاط فى العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبى بعد سقوط بابل فانكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان ، ورفضوا مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون الى بناء هيكل خاص لهم فى جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة فى هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم ، وقد بقى منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتى سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة ، ولكنهم اعادوا بناءه وظل قائما حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين فى القرن الخامس للميلاد ، وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » أو نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها . ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التى تعرف بالكتب الموسوية.

ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين فى عصر الميلاد حتى بطل الامان فى السفر بين السامرة والبلاد الأخرى ، وتعرض للاهانة والتكال كل من خاطر بالسفر الى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال .

* * *

ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية او فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود، ويرجع شأنهم هذا الى النزاع القديم بين مملكة يهوذا فى الجنوب ومملكة اسرائيل التى ورثها السامريون ، وهم ينتسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم « الاسرائيليين » .

فاذا اعتقد أصحاب مملكة يهوذا فى الجنوب أن عاصمتهم — بيت المقدس — هى مقر الملك المنتظر ، وان هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد الى دولتهم ويجعل الخلاص على أيديهم ، ولكن السامرين ابناء الشمال كانوا يلجون فى عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الأسباط ، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدى ملك من اسرة الملك فى يهودا ويفتحون بذلك السبيل الى الايمان بالخلاص الروحانى والهداية الشعبية ، ويزعزعون الثقة فى احبار الهيكل الجنوبى وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك ، اذا حان الموعد المقدور .

.... ولم تخل البلاد جميعا — مع هذا — من ناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا وعاشوا فى الصوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شأنهم فى أعين الشعب

لسوء ظنه بالدعاة المغامسين للدنيا فى بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء « بانوس » الذى تتلمذ عليه يوسفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات ، وكان هذا الناسك الثائر يعيش فى عزلة ويأكل مما يتفق له بغير سعى ولا مسألة ، ويكثر من التطهر بالماء والتزكى بالرياضة والتلاوة ، وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه فى شعائر الاعتزال والاغتسال ، واشهرهم يحيى المغتسل المعروف فى الاناجيل باسم يوحنا المعمدان ! .

اما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف « الرسمى » المعهود ... أو موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا او لذاك ، ويجتهدون غاية اجتهادهم أن يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة ، وقلما يتيسر النجاح فى هذه المهمة . ولا سيما فى أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود .

كان الهيكل خيمة فى عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديما أن الله يتجلى فى هذه الخيمة للانبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل فى أيام التيه ، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبى ، وقيل انه أنفق على بنائه مائة الف وزنة من الذهب وألف الف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك فى حساب الآخرين حسب تقدير المثقال فى المعاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت اقدار كهانه واحباره ردحا من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد ان قام فى مجده اكثر من اربعة قرون ، ثم أمر كورش الفارسى باعادة بنائه فى سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف اليه ، وتم ذلك أو كاد فى عصر الميلاد .

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة ، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى فى الحقيقة الواقعة ويمكن فى الصورة الظاهرة : يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذى بقى لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من اعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب فى عصر الميلاد .

* * *

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة فى أصحاب الكهانة ، وهى وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته يتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم فى الهيكل امامة الصلاة والافتاء فى مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية فى الاعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل أن القائد زربابل (أى المولود فى بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو اربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم الى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ، ويقتسمون جميعا فى النذور والمرتبات .

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم الوف بغير عمل وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون فى تعليم الشعب ولا فى اقامة الصلوات ، ووجد الى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه ، وهؤلاء هم جماعة « الكتبة » أو فقهاء الدين ، وكانوا جميعا من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها فى العبادات

والمعاملات ، خلافا للصدوقيين الذين كانوا — كما تقدم — يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء .

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون فى صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون فى الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون فى العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب اهمال الكهان فى المسائل الدينية التى تحتاج الى التعليم والافتاء على الخصوص . وشاع بين الشعب كذلك الاقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم فى المعضلات والاقتداء بهم فى مسالك الحياة ؛ فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص .

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة فى المجمع المقدس الذى يطلق عليه اسم « السنهدرين » . وعدة أعضائه واحد وسبعون عضوا منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ؛ ويتصل أعضاؤه برجال الدولة فى الشئون العامة وما يرجع منها الى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية .

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب فى «السنهدرين» أن يرجعوا بأصله الى أقدم العهود : وكانوا يزعمون أنه هو المجلس الذى ورد ذكره فى سفر العدد اذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع الى سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ

الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك، فانزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذى عليك واضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك » .

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين ، الا اشارة عابرة هنا وهناك لا يستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ؛ ومما لا ريب فيه أن المجلس الذى كان فى عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم فى الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثانى بنحو أربعين سنة ، وكانت أحكامه الكبرى فى أيام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الرومانى يبرمها أو ينقضها حين يشاء .

واذا نظرنا الى موقف هذه الهيئة من بشرى « المسيح المنتظر » لم نكد نرى فيها باعثا الى الترحيب بتلك البشرى ، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله . ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هى باب الأمل الوحيد فى وجه المؤمنين والمترقبين ، فهى فى موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه ، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الاقبال عليها ومخايل الأمل فى شيوعها وانتشارها ، وهى اذا انتشرت لم يكن انتشارها فى مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء دون غيرهم . لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذى يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم انهم كهان فاسدون مفسدون . لأنهم آخر الزمان الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب . .

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التى كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير

الاشارة الى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم ا
وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود
يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجم
بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحا
متفرقين ينـذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حـدة ، و
ينتسبون الى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها .

والكلمة باللغة العربية ترجع الى مادة تفيد معنى التجني
واستعيرت على ما يظهر للجهاد فى سبيل الدين ، يقال نذر الجي
الرجل جعله نذيرة أى طليعة . وربما كان من عمله أن ينـ
قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت ، ولا شك أن الم
تدور حول هذا المعنى فى العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان

ولا يشرط فى النـذرى أو المنذور أن يهجر العـالم ويعت
الناس فى الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجـ
له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسـ
المحرمة ، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره أن
منذورا لأجل مسمى ، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نـ
طول حياته . ويقال عن المنذور انه بمثابة النبى فى سن الفتو
قال النبى عاموس بلسان يهوا اله بنى اسرائيل .. وأقمت
بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين .. لكنكم سقيتم النذيرين خ
وأوصيتم الأنبيـاء أن يدعوا النبوءة . والنبوءة هنا بمعنى الان
بما سيكون .

وقد تكاثر النذيرون قبيـل مولد السيد المسـيح لأنه و
نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقـة على حساب التقـ

العبرى . وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لانهم كانوا ينتظرونه على رأس كل الف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهى كألف سنة كما جاء فى المزامير ، وان عمـــر الدنيا اسبوع الهى ، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم الف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم . ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية mellinniun ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام .

فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض الى نهاية الالف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت الف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخـــلاص او لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه .

والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح ان النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من اعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديما، وأنها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيـــط بها

تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين فى اللغة اليونانية ، لغة الأناجيل، فلا عجب ان يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة الى المنذورين والنسبة الى النذيرة ، وبخاصة اذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على السنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين .

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا، ولكنهم ينتمون الى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذى جعلهم قوات ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة الى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والاصغاء اليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود .

الحالة السياسية والاجتماعية

في عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباى » الذى قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة «سبارتاكوس» المشهور .

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التى أضافت الى مجد بومباى وخلدت ذكره بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفى على الابطال والدول مجدا لا ينطوى على خير كبير ، فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التى لم يعرف لها مثيل فى ثورات العبيد الاقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التى تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن فى بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين الف عبد ويقهر بهم جيوش روما زهاء ثلاث سنوات ، ولولا خلل في كيان المجتمع لما اشتمل على اضعاف هذا العدد من الارقاء المسخرين الذين ينظرون الى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا بها الى الحضيض .

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول « عبد » شرقى ثائر على الدولة الرومانية ، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية الى الثورة فى صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشا استقر فى الجزيرة عشر سنين ، وهذه من الثورة التى تجلى قائدها « أونس » لأتباعه فى صورة النبى المرسل وفى شارة الملك المتوج بيد الله ، وكان أصله فى سورية وكثير من اتباعه شرقيون .

وقد سبقت ثورة أونس السورى ولحقت بها ثورات من قبيل لم تبلغ مبلغها من العنف ، ولم تخل احداها من صبغة دينية يدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها فى آسيا الصغرى تنشىء

حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزا الى عبادة النور والحرية، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون فى صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان .

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافيا على المصلحين من ساسة الرومان فى الأجيال التريبة التى سبقت ميلاد السيد المسيح ، فأرادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة الى الشريعة التى تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Gracchus انه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو وأخوه الى تموين المعوزين باغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت فى تلك الأجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس فى سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال فى خطابه « التفسيرى » كما روى شيشرون « ان ملاك الأرض فى مدينة رومة لا يزيدون على ألفين » ... وازدادت هذه الحالة سوءا فى عصر أوغسطس المجيد كما يوصف فى التواريخ ، فآلت المستعمرة الأفريقية الى قبضة ستة من المتبطلين، وفيها ألوف من الأرقاء المسخرين .

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذى قال فيه السيد المسيح فى رواية الحوارى متى « ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه » .

* * *

والواقع انه كان عصرا مجيدا بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية ، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه : فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين ،

والقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سندا لا غنى عنه ، وانتهت بها الحاجة الى تلك القوة أنها القت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها ، وضيعت الجمهورية في سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر الى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب اله ، وقررت عبادته مع الالهة ورصدت له شهرا فى السنة لا يزال معروفا باسمه الى اليوم ، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عليه آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين .

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين : ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن فى المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع افراط النعيم حتى السأم من الحياة ، وافراط الشقاء حتى النقمة على الحياة ، فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذى كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع وأضاع .

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية فى فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها ، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قرارا فى مدى عشرين سنة ، وانقسم الرأى فى فلسطين بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان ، واشتد التناحر بين الفريقين اشتدادا خرج بهم الى ضراوة الوحشية فى مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا ، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان فى بيت المقدس ، وكان أنصار

الفرس يرشحون لرئاسة الكهنة انتيجونس بن اورسطبولس ، فقبض هذا بيديه على مزاحمة هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه ، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته ، اذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوى العاهات .

وكان فى البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل ادوميين ، عرف بفراسته وبعد نظره ان الكفة الراجحة فى النزاع على فلسطين لدولة الرومان ، فانضوى اليها واستبسل فى معونتها . فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح ، وكافأهم هو بالتمادى فى محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت اليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية فى وقت واحد ، فتغالى فى الغيرة اليهودية التى كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ، وتغالى فى محاكاة الرومان والاغريق بالأزياء والمساكن والشارات والأسماء . وتكفل باتمام بناء الهيكل على نفقته ، ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه «المترومين» ان صح هذا التعبير ، لعلهم يدارون شططه فى محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية ، كلما احتاج الى التوفيق بين النقيضين .

ومع هذا الجهد المضنى فى التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه ، وحدث قبيل وفاته ان طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وانصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة علنية وأمر باجناده فحملوه الى المحكمة ، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء ! وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم اذا مات قبل اعلان

وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بقرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم فى ذلك اليوم بالفرح الذى ترقبوه .

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل — حيث ولد السيد المسيح — فى حصة هيرود الثانى انتيباس ، ووقعت اليهودية فى حصة ارخلاوس ، ووقعت مشارف الشام فى حصة فيليب ، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك الى روما ليتلقى عهد الامارة من يدى القيصر ، فهذا الذى يشير اليه السيد المسيح فى مثله المشهور كما رواه الحوارى لوقا حيث يقول ما فحواه : « كان انسان شريف النسب ذهب الى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع ... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة يقولون : لا نريده ملكا علينا ..

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة فى ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشر ، وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم الى التنافس بينهم فى مرضاتها ، وتتخذهم جميعا درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين .

ومن المتواتر — مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتى بعد — ان السيد المسيح ولد فى أعقاب ثورة جائحة اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة واتباعهم لأنهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالأحصاء العام ، وليس الاحصاء بطبيعة الحال سببا من الأسباب لاشعال نار الثورة بين أبناء امة مطمئنة ، ولكنه أشعل نار الثورة فعلا لأنه اثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين : احداهما مشكلة الاعتراف بملك غير

« يهوا » الذى يؤمن الشعب اليهودى أنه هو الاله وهو الملك ، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما له الا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال، فاذا دان اليهودى لملك غير « يهوا » أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان . وقد حسب الشعب الاسرائيلى أن الأحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا وتقييدهم عبيدا للقيصر مطالبين بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه ، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهى تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذى لا يخص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون اداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار ، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك فى تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث اليه . ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه امام جمهرة الشعب عن أداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز « فأرسلوا اليه تلاميذهم من الهروديين قائلين : « يا معلم : انك صادق تعلم بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر الى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا يجوز ؟ » فكان جوابه المشهور أرونى معاملة الجزية ! ونظر الى الدينار الرومانى فسألهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فلما أجابوه انها لقيصر قال لهم : أعطوا اذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وأسكتهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يستنكرون اداءها حقا لأنكروا كسبها وادخارها ، وقد كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة الغلاة منهم ، وهى التى ثارت عند تقرير الاحصاء العام .

أما المشكلة الأخرى التى أثارها تقرير الاحصاء فهى مشكلة الضريبة وعسف الجباة فى تحصيلها ، فقد كان اليهودى يؤدى

ضريبين احداهما للهيكل والأخرى للدولة ، وقد جاء فى الأناجيل ان رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه ، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان : ما تظن يا سمعان ؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية ؟ أمن بنيهم ام من الأجانب ؟ قال له التلميذ : بل من الأجانب ، فقال السيد المسيح : اذن ان البنين احرار .. ولكنه عاد فأمر تلميذه باداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ .

وقد كان أداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء ، ولكنه — مع العسف فى تحصيل ضريبة الدولة — كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء ، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة ، فاذا حان الموعد السنوى فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئا غير الذى يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئا غير الذى يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربى على ضعفى المال المطلوب .

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة الى الشعب وكان الشعب الاسرائيلى لا يغتفر لأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المال حراما من أرزاق المعوزية ، ومن ثم كان انكارهم على السيد المسيح انه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع الى مناجاتهم ، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالامانة فى الجباية ... يسألونه : يا معلم ! ماذا نفعل ؟ فيقول لهم : لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا احدا ولا تشوا بأحد . واكتفوا بعلائفكم .. لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس !

فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء أن الدولة

لا تكتفى بما تحصله جملة وتنوى أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فردا فردا مع الشطط فى تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعى الثورة من الغلاة ، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة الى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون .

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والاوربيين أن الحالة السياسية فى فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها على افراطها فى السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية فى الدلالة على القنوط وعموم البلاء ؛ وحسب القارىء أن يتصفح الأناجيل كائنا ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكى تتمثل له حالة البؤس واليأس التى كانت ترين على القرى والمدن فى اقاليم فلسطين ، ولا سيما اقليم الجليل الذى تواترت الروايات عنه ، فحيثما سجل الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن المعجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى وييس المفاصل والأطراف ، وبينهم من يقال عنه أن جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشبان والكهول فى مختلف الأعمار ، وهذا الى أمراض البرص والنزيف والصرع الذى لا يقترن بالجنون .

واذا كانت هذه هى الحالات البارزة فالى جانبها ولا شك حالات أخرى دونها فى الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التى غشت فى ذلك المجتمع وتركته مهيض الأعصاب عرضة للسخط والهياج ، ويضاف الى هذا أن عصر الميلاد قد شهد فى فلسطين طوائف شتى من الاساة الذين يطببون المرضى بالعلاج

الروحانى ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة فى التطبيب والعلاج ، واذا قلنا أن عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيض الاعصاب فنحن نلتفت التفاتا خاصا الى هذه الظاهرة التى تشير الى الحالة النفسية فى جملتها فليس أحوج من عصر كذلك العصر الى السكينة وثقة الايمان وليس أشد منه تعطشا الى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه الى الهادى الذى يرجى على يديه التسليم والتطهير ، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل فى وجهتها عمل الرواد السابقين ، وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل او يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد فى طريق الرسالة والنبوة ، فجعل للتطهير رمزا من الاغتسال بالماء . واثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد فى زمنه وهو بلاط الملك هيرود . فانه البؤرة التى استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الأخوة والابناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبى على التطهير كفئ لجسارة الطاغية الاثيم على الدنس والخيانة ، وقضى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة فى حملته الصراح وخرج من الميدان شهيدا يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبى هدية لراقصة مبذولة الجسد ، ولا جرم يكون عصر « يحيى المغتسل » عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ، ثم تبدأ المعركة التى تستوفى الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء .

الحياة الدينية في العالم
في عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت فى حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ما عدا الشرق الاقصى ، وأصبح من رعاياها أناس مختلفون فى الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت فى رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند الى الشواطىء الاطلسية ، وكثر الحديث بين الناس عن الارباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم الى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس أن ينظروا الى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية .

وأعظم من هذه النظرة العالمية اثر فى موضوعنا عبقرية المسيح — ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجرى من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافا لما يسبق الى الظن من غلبة العقائد تبعا لغلبة القوة السياسية .

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة فى كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك أن عقائد الشرق هى التى غلبت على رومة واتباعها ، وهى التى انتقلت من الأمم المحكومة الى الامة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه القاعدة ، بل كانت تطبيقا جديدا لها أعم واوسع من كل تطبيق متقدم عليها .

وليس فى الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر الى الذهن لأول وهلة ، فان سريان العقائد من الشرق الى الغرب فى تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التى تؤيدها جميع الأسباب ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل .

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقا للقياصرة وموافقا للرعايا فى وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون فى الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد فى الشرق يعلنون حلول الالهة فى اجسام الملوك ، ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابنا للاله « آمون » خبرا يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ، وجر هذا المطمع الغريب الى فتنة عنيفة فى وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس — خليفة الاسكندر — بطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهى أو صاحب الشارة الالهية .

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطا من الشعوب المختلفة ، ونرى هذا الاختلاط الى الجيوش التى كانوا يسوقونها الى المشرق ويتركونها فيه زمنا ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الأحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء فى العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط ان يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشارقة كما الاسكندر — لطلب الربوبية من القياصرة !

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الأسرار العلوية وانه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية ، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون الى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة الى المجوس ، والسحر البابلى فى كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم الى الزمن الحديث ، وتوقيت الزمن بالأسابيع التى يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقى موغل فى القدم ، لا تزال بقاياه فى التقويم الاوربى من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب .

فلا عجب ان يؤخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لابناء الشرق

بأخبار السماء واسرارها ، ما دامت الأرض فى ايديهم يحكمونها كما يشاءون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !

لهذا زحفت على العالم الرومانى نحلة «مثرا» ونحلة «ايزيس» ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نجلة اورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى ، ومرجعها هى أيضا الى الشرق القديم .

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية فى أقصى اقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت فى آثار السور الرومانى بالبلاد الانجليزية كما شوهدت فى غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : احداهما صفة النور الذى يبدد الظلام والحق الذى يمحق الباطل ، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذى قيل فى كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » أنه يسوق جحافله منتصرا لتغليب اله الخير أورمزد على اله الشر أهريمان ، وهو كذلك اله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره فى أعمالهم الليلية ، ويعتقدون أنه يولد فى الجسد الآدمى كما يولد الفقراء فى كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه الى العباد ذلك الحنين المعهود فى الناس الى استطلاع الأسرار والطموح الى الترقى فى رجات العلم بالمجهول ، فقد كانت لعباده درجات سبع ينتقلون فيها من درجة الى درجة على أيدى الائمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر فى كل احتفال سرا أو جهرا على ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذى يوضع على اللسان رمزا الى حلاوة الايمان .

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة « مثرا » الفارسية فى غزو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « ديمتر »

ونحلوها صفتها المصرية وهى صفة الأمومة الكبرى او صـفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفى حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمز الامومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم فى الغرب محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والاسرة ، ومن ثم شيوع عبـادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الاسرة وتقديس حقـوق الآباء ، ولا شك ان المراسم السرية التى تلازم نحلة ايزين كان لها أثرها فى تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الاثر فى عبادة مترا وما شابهها من العبادات .

وخرجت من مصر أيضا نحلة قوية على قلة عدد المنتمين اليها، وهى نحلة المتنطسين Therapeuts التى ذكرها الحكيم الاسكندرى اليهودى فيلون ، وقال ان اتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك فى الصـوامع للتأمل والدراسة الفلسـفية ورياضة الروح والجسـد واسمهم اليونانى معنـاه الاساة أو المتنطسـون ، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة . ويظن بعض المؤرخين أن هـؤلاء المتنسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآ سـين أو الاسينيين ، واشرنا اليهم فى الكلام على فرق اليهود .

ومما يلاحظ أن نحلة « اورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسـبون « الأسرار الدينيـة اختصاصا للشرق القـديم ويرجعون الى اليونان فى مسائل الفلسـفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة « الأورفية » الى ديانة شرقية تجـرى على سنة الشرق فى التقشف والاخوة الروحيـة ، وقد

نشأت الاورفية اليونانية نشأة فنية وقيل فى وصف أورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهى تصغى اليه ثم أصبح التأليف بين الضوارى والنعم رمزا الى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الاقوياء ، وجاء عصر الميلاد والاورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيض ولا يذوقون الخمر الا فى مراسم القربان ، واحتفظوا بعقيدة اليونان الاقدمين فى أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا أنه يزور عالم الموتى ويعود منه وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس اله الربيع ، وكثيرا ما قيل فى كتب المقابلة بين الأديان ان اتون الاله المصرى وادونيس الاله اليونانى وادوناى بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية اسماء عدة ترجع الى مصدرها المصرى القديم .

***

ومن الواضح أن هذه النحل التى كانت تصطفى الأعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الامم كافة بظواهرها وخوافيها ، وانما كانت فى جوهرها اشبه بالروابط والجماعات التى تضم اليها المشتغلين بغرض واحد أو المتفقين فى المزاج والعاطفة ، وكانت أقرب الى الجماعات الفنية الرياضية التى تقوم على تخير الأذواق وتوحيد العلاقات بين الاشباه والنظراء ، فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون ان هذه الحقائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم اليه الحكماء المجربون المدربون ، وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم فى الشعائر العامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير فى جو من الالفة واتفاق المطالب

النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية أو فنية فهى عنده بمثابة الاندية التى تصون روادها من الاخلاط و « الاغيار » ولا سيما الاغيار من ذوى الجهالة والاسفاف .

ولكن الدلالة الكبرى التى تتجمع من شيوع هذه النحل فى عصر الميلاد انها « أولا » علامة على طلب الاعتقاد واحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء فى جو التقاليد والمعتقدات .

وانها « ثانيا » علامة على الوجهة العالمية التى أخذت تسرى فى انحاء العالم المعمور وتؤلف بين ابناء الامم المختلفة فى طلب العقائد الروحية ، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على احد من أجل جنسه وأصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها الى اعلاها .

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها . وكانت على دأبها سادرة فى عاداتها ومألوفاتها ، ولكنها لم تخل فى هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين اتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعا بين حين وآخر الى محافل الأعياد العامة التى تقام لهذا « الرب » أو لتلك « الربة » أو تتردد فى مواسم الطبيعة بصبغتها التى كانت تمتزج بالدين على عادة الاقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، اذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان ان الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذى لا يكلف الدولة شيئا أن تفرح جماهير العامة بالاعياد وتتسابق فى المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام .

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ فى العالم المعمـور انها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع ورغبة فى الاعتقاد عن بحث وبينة انفة من عقائد التقليد ، وانها كانت تجرى فى مجراها الى « العالمية » التى تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها ، واهم من هذه العالمية فى النحل والمحافل «عالمية» فى اللغة والثقافة حطمت اقوى الحواجز التى كانت قائمة قبـل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هى لسان « يهوا » الذى يخاطب به الانبياء ويناجى به الكهـان فى المحارب ، فلم يلبثوا أن تبـلوا الدعاء واستمعوا الى كتب الوحى باللغة الآرامية ، وما يشابهها من اللهجـات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة الى اللغة اليونانية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة الى مداها فى عصر الميلاد وما بعده ، فكانت الآرامية هى اللغة التى بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هى لغة الاناجيل ، وكانت السريانية لغة التوراة والانجيل معا ولما ينقض أكثر من قـرن واحد على مولد السيد المسيح .

***

وأهم الظواهر التى تسجل فى سياق الكلام على الشؤن الدينية العامة قبيل الميـلاد ان العقائد الوثنيـة كانت فى حالة اشـبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس أن القيصر اغسطس جمع فى سنة (١٢ قبل الميلاد) قرابة الفى قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وأمر بها فأحرقت علانية ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها فى صندوقين مذهبين ونقلها الى معبـد الاله ابولون ، وفى هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية فى ذلك الجيل .

الحياة الفكرية

في عصر الميلاد

كانت المذاهب الفكرية التى يتحدث بها المثقفون شائعة فى بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيرا قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، وأكثرها الفيثاغورية والابيقورية والرواقية ، وهى التى تمنينا فضلا عن شهرتها ، لأنها هى المذاهب التى تتصل بالسلوك والاعتقاد ، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان فى عصر يشبه عندهم العصر الذى ولد فيه السيد المسيح ، وهما الابيقورية والرواقية ، فان هذين المذهبين — على تناقضهما — رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهى حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين .

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى فى غاية واحدة هى طلب السكينة والراحة ، الا أن الفيثاغورية التى ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت أقرب الى الروحانية والمزج بين عقائد الامم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهى جميعا أقرب الى النشأة الشرقية ، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى .

وقد كان اتباع فيثا غوراس طائفة تجتمع فى « اخوة » ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التى تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعا عن بعض العادات ، وقد كانوا يعتقدون فى رئيسهم فيثاغوراس انه ابن الاله « ابولون » وانه لم يمت وسيبعث بعد حين ، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح ، وان الروح فى الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمال ، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة الا يأكلوا من

رغيف صحيح والا يلتقطوا شيئا وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر ولا ينظروا فى المـــرآة الى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحا تسكنها الى حين ، وعندهم أن الناس درجات بشر وانصاف من بشر وآلهة ، وفيثاغوراس أحد هؤلاء .

وكان فيثاغوراس يقبـــل الرجال والنساء فى أخوته ويوجب المشاركة فى الأقوات والمقتنيات التى تصل الى أيدى الجماعة ، ويؤمن اتباعه بعد موته بانه يلهمهم الكشـوف العلميـــة ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت « فرجة » عنده وهى كذلك عند من يشبهونه . فالعالم فى راى الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية ، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها اناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعا ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان .

والأفكار الفلسفية نفسها هى وحى من الله ، ويردون اشتقاق اسمه ثيورى Theory الى اسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهى من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة « والانسجام » بينه وبين موسيقى الكون . اذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كمالة عدد الأربعة ، لعلة كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التى تخلق منها جميـــع الأشياء .

وقيل ان لهم اغراضا سياسية وانهم كانوا يتـــآمرون على الدولة فى اجتماعاتهم السرية ، وقد عاش فيثاغوراس فى القرن السادس من الميلاد وساح فى بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت

نحلته أو اخوته فى جميع الأقطار ، ولا سيما الاقطار التى أقام فيها اليونان المستشرقون .

أما الابيقورية والرواقية فقد ظهرتا فى عصر واحد ، وانتشرتا بين المثقفين فى جميع أنحاء العالم المعمور ، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما فى الواقع متقاربتان أو يمكن أن تتقاربا عملا على حسب التفسير والسلوك فى المعيشة .

نشأ ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الأشهر فى جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ باسيا الصغرى مع أهله هربا من الاضطهاد ، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو فى نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته فى الحديقة المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو فى نحو الثلاثين .

واذا قيست فلسفة ابيقور على معيشته الشخصية فهى حياة نساك متقشفين ، لأنه كان يقضى معظم أيامه على الخبز والماء أو على الخبز والجبن ، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لأنه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وافضل السرور ما لم يعقب ألما ولا ندما ، ولهذا كان يجتنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور « المتحرك » وهو السرور الذى يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقد كان يقسم السرور الى نوعين : سرور متحرك وسرور مستقر أو ساكن ، وافضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعنى به سرور التأمل والراحة والقناعة .

وكان ابيقور يقبل فى مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجا فى طلب السرور حيث يوجد بريئا من الألم والندم ، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم « الخير » اذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع » ومن أعرض عن سرور يستطيعه فى غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم .

وقد انحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه آنها محشوة بالخرافات والاكاذيب ، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لهـا فيها ولا قضاء ، ولا فرق عنده بين الارباب والمخلوقات الا فى لطافة المادة وتفاوة التركيب ، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود ..

ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها الى الأسباب الطبيعية . ويرفض كل ما كان مرجعه الى الأرباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبه فى السرور والألم ، فان لم يكن فى الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب ابيقور فى عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والايمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الابيقورية — خلافا للرواقية . لا تعفى اصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجبا يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هـذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها فى اصول منظومة اشبه بالاوراد الدينية التى يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الايمان والعبادة .

* * *

واذا أردنا تلخيص المذهب الرواقى فى كلمتين اثنتين فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة .

الصبر على الشدائد والعفة عن الشهوات، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره ، فمن راض نفسـه على مغالبة الالم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لابناء الفناء ؛ وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون أن الكون كله نظام متناسق يجرى على حسب المشيئة الالهية ، الوحى والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه ، ويلتقى الانسان بالعقل مع الالهة وبالجسـد مع الحيوان الأعجم ، وفضـيلته الانسانية هى ان يطيع العقل ويعصى الجسد ، وعصيانه الجسد

هو مقاومة الشهوات ، وطاعته العقل هى طلب المعرفة ، وسعادة الانسان كلها هى السعادة التى تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فضول لا خير فيه .

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد ، ولكنهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده الى الايمان بحرية الروح فى مواجهة المادة ، فالاله الأكبر « زيوس » لا يستطيع أن يجعل الجسد حراً من قيود المادة ولكنه يعطينا قبسا من روحه الالهية . نصبح بنعمته اخوانا لا يفرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة واينما يكونوا فهم مع الله ، لا حاجة بهم الى هيكل أو معبد ، فانما القداسة فى النفس التى تعبد وليست القداسة فى مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التى اثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠ — ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجى زيوس قائلا : « اهدنى يا زيوس ، أيها القدر . خذ بيدى الى حيث أردت أن ترسلنى . خذ بيدى اتبعك غير ناكص ولا وجل فان خامرنى الريب فأحجمت وتريثت فمن اتباعك لا مهرب لى ولا نجاة » .

ويتبع الرواقى طريق القدر لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى . فان الاله الأكبر لا يريد شرا ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التى فى الدنيا الا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ، واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الالهية ، وانما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الاله فى قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فان الحكيم يحمل فى حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء .

وقد أخذ الرواقيون من الهند — بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر — ان العالم ينقضى ويعود فى دورات أبدية لا تعرف لهـا نهاية ، واعتقد بعضهم أن أرواح الحكماء تبقى فى كل دورة الى نهايتها ، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية وهى النار التى تطهر جميع الموجودات لتخلص من اوشابها ثم تعـود دواليك فى وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة .

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للائمة الشرقيين ولا سيما القطبين الكبيرين فى هذه المدرسة زينون (٣٤٠ — ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ — ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعـا من الفينيقيين او من اليونان الذين استشرقوا واقاموا منذ زمن فى البلاد الشرقية ، وخلاصة مذهب الامام الرواقى الأكبر — زينون — كما لخصناه فى كتابنا عن الله « ان الاله جوهر ذو مادة» Soma

وان الكون كله هو قوام جوهر الاله ، وان الاله يتخلل اجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخـلايا ، وان الناموس Nomos

وهو بعبارة اخرى مرادف للعقل الحق Orthas Logas او الكلمة الحقة — هو والاله زيوس شىء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة الهيـة ويعتقد — كما أسلفنا — ان الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة واسبابها ومقاديرها ، فتعـود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد منفردا لا شريك له فشاء ان يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبح الهواء ماء ، وجرت فى الماء مادة الخلق Sparmatikos Logas كما تجرى مادة

التوليد فى الأحياء ، فبرزت منها مبادىء الأشياء وهى النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبـادىء على التدريج . وتعريف القدر عند زينون انه القوة التي تحرك الهيولى، وهى قوة عاقلة ، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه ، ولا شىء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لأنه عظيم . ويفسر زينون تعدد الالهة فى معتقدات العامة بانهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات ان هى الا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية » .

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد — بوزينون الذى اشرنا اليه — كان يعلم تلاميذه ان الروح لا تفنى بفناء الجسد وانهـا ترتقى صعدا فى السمـاء على حسب ارتقائها فى المعرفة والفضيلة ، فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الارض ومنها ما يحلق بين الافلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر اليها والاستماع الى الحانها فى مسراها الى يوم القيامة ، وقد كان هذا الحكيم معنيا بالهند فى بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنيا بها فى بحوثه الفـكرية الدينيـة ، فقـرر فيما رواه عنـه صاحب كتـاب « الرواقيون والشكوكيون » Stoics and Scepties ان المسافة بين قادش والهند سبعون الف ستادة ، وهى مقياس يونانى يساوى نحو مائة وخمسة وسبعين مترا ، ويقال ان هذا التقدير كان فى حساب كولمبس عندما قصد الى الهند من طريق البحار الغربية .

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذى اعقبته المذاهب الرواقية فى العالم الرومانى الى اقصى اطرافه ، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور امامة الأول — زينون — بنحو أربعة قرون ، فكان من ائمته العبـد الرقيق ابيكتيتس (٦٠ — ١٠٠ بعد الميلاد) والامبراطور الكبير

ماركس أورليوس (١٢١ — ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء الى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق واقاموا فيه .

اما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الابيقوريين يتقاسمان فيها افكار المتدينين وغير المتدينين ، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الاسرائيلية كأنهما زيان من ازياء الثقافة التى يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون الى الابيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب ، ولكن شيوع الاقطاب الشرقيين بين الرواقيين كل يصبغ نحلتهم بالصبغةالوطنية التى لا يتحرجالفريسيون من محاكاتها تمشيا مع نزعتهم الى التجديد .

ومن المصادفات التى تساعد على تتبع اثر المذاهب الفكرية فى العالم الاسرائيلى أن عصر الميلاد انجب اكبر فلاسفة الاسرائيلية فى العصر القديم وهو يهودافيلون ، الذى ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعد الميلاد) ومزج فى فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيما منبت الافريقية الاسكندرية ، وقد اخذ القول بالكلمة **Logos** من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها فى الزمن القديم ، وقال انها هى واسطة الله فى علاقته بهذا العالم واخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس وعبادة اوزيريس سرابيس التى تأسست بالاسكندرية وتفرعت فى أثينا وبومبى وروما وبعض الموانىء الاسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحا عقليا يخالف فى كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال فى كلامه عن خلق العالم أن موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم فى الحلال والحرام

بغير تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التى تحيط بها الألغاز والزيادات وانه روى قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الانسان الذى يتبع النظام ، مواطن صالح للعـــالم كله، يسير فى عمله وفقا لمشيئة الطبيعة التى تسير الدنيا كلها وفقـــا لمشيئتها .

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية ، فقال فى كلامه عن ابراهيم مفسرا اسم اسحاق «ان معنى اسحاق فى لغتنا الضحك . ولكن الضحك هنا غير الضحك الذى ياتى من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذى روى لنا ان الحكيم ابراهام قدمه قربانا الى الله مبينا ذلك فى هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده . اذ الانسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله »

ومذهب فيلون فى الصلاة ان الانسان يصلى شكرا لله على ما فى الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعا رجالا ونساء ويونان وبرابرة ومنها ذات المصلى جسدا وروحا ومنطقا وعقلا وحسا ، فان الصلاة على هذا المثال جديرة أن تستجاب .

وينقسم الانسان عند فيلون الى ثلاثة أقسام : وليد الأرض ووليد السماء ووليد الله ، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرد عن الدنيا واقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة ، فى زمرة الهداة والمرسلين .

وليس فيلون من دعاة العزلة فى الصوامع ، لان اختلاف المكان لا يصنع شيئا وانما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن فى كل مكان ، يهدى ركاب الروح الى حيث يشاء .

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال فى كلامه عن الشرائع الخاصة « ان الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لأنه مالك كل شيء ومعطى الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ؛ بل من تقدم اليه بنفسه لا يحتقب شيئا فى الصدق وخلوص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال ».

وقد كان فيلون عالميا يخاطب بنى الانسان كافة ، وكان يقول ان اسرائيل انما سمى بهذا الأسم لأنه ينظر الى الله ؛ فكل ناظر الى الله اسرائيل . ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط فى كلامه عن بنى اسرائيل انهم هداة الأمم وانهم أحق عشائر الانسان باعجاب جميع العشائر فان الاثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الاثينيين . ولم يعهد فى المصريين انهم يأخذون بتقاليد السيثيين او فى السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين ، واهل اوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا واهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة ، ولكن اليوم السابع الذى يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر الحرام فى عرف الإغريق ، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالافراط فى الشراب والطعام وشهوات الأجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بنى اسرائيل .

يقول هذا عن قومه ، فى كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه يقول فى كلامه عن الشرائع الخاصة إن اسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لا يأخذ بناصرهم أحد اذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر ، وذنبهم عند الناس انهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون فى المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع

والتزمت بغيض الى النفوس ومع هذا يقول لنـا موسى أن يتم اسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبر الكون الذى وقعت اسرائيل من نصيبه وفرزت من العالم كما تفرز بواكير الثمار هدية للخالق والأب الرحيم » .

***

تلك غاية الشوط الذى انتهى اليه فيلون فى زمنه ولا يعتبر فيلون من الائمة ذوى الاتباع فى الديانة الموسوية ، ولكنه يعتبر نموذجا صالحا لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين فى اوائل عصر الميلاد .

جلائل الأمم

ولد السيد المسيح بأرض الجليل — أو جليل الأمم كما كان يسميها الاسرائيليون ، لأنها كانت اقليما مفتوحا لجميع الأمم الشرقية والغربية، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم فى زمن من الأزمان .

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الاحاطة ، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الاقامة فى بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب .

وكانت الجليل جزءا من اقاليم الشاطىء الشمالية التى عرفت فى التاريخ القديم باسم كنعان، ثم أطلق عليها اليونان اسم «فينيقية» من اللون الأحمر على ما يظهر ، وهو لون الصخور والجبال .

وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض الى خليج فارس الى اقصى المشرق واشتهرت فى هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فى صيدا وصور ، لأن الشواطىء الجنوبية خلت فى الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء ، وهى يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف .

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة فى المشرق والمغرب ، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولا سيما المعارف التى لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة ، حتى تواتر أن تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الابجدية فى بلاد البحر الأبيض ، ومنها انتقلت الى سائر الأمم الاوربية .

وقد دخل بعض بلاد الجليل — أو كنعان — فى مملكة داود بعد انشائها ، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم تكن علاقة حرب وعداء ، وكان اثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم فى الصناعة والتجارة ، وجاء فى العهـد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعـان فى تشييد الهياكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك فى سفر الملوك أن سليمان أرسل الى حيرام ملك الكنعانيين يرجـوه أن يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ويقول له : « أنك تعلم انه ليس بيننا احد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين » .. ومنه وصف المهندس الذى كان أبوه من صدر وامه من سبط نفتالى « وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل فى النحاس » (١) .

وقد جاء فى الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال أنهم كانوا يتجرون بالحنطـة والعسل والزيت والبلسان والحلـوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى .

واعتمد اليهود على الكنعانيين فى شئون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة ، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة أنهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها الى عقائد الكنعانيين ، والى ذلك يشير العهد القديم فى سفر القضاة حيث يقول : « وفعل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم وتركوا اله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر » والى ذلك ايضا يشير العهد القديم فى سفر الملوك الأول

(١) الاصحاح السابع من الملوك الأول .

حيث يقول النبى ايليا « ان بنى اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك » الى أن يقول : « وقد أبقيت فى اسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التى لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله ».

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين فى الاقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة ، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم ابناء اليهودية نظرتهم الى الخوارج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم ، وكان الواقع ان أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهى لغة أهل سورية الداخليـــة ، او باليونانية ، وهى لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيرا من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية ، ويرجح بعض المؤرخين أن الفينيقيين الأقدمين جميعا كانوا من قبائل الخليج الفارسى التى جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتهـــا بالبحار الشرقية .

وبلغ من بعض أهل اليهودية لأبناء ملتهم فى الشمال أن « حنا هيركانوس » المكابى أغار على الأقاليم الشمالية ، ومنها بلاد فى السامرة وبلاد فى الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود الى الجنوب ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم واجدادهم أو من البلاد التى استوطنوها منذ زمن طويل ، ولبـــث السامريون منفردين بتقاليدهم ، ولبث أهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب .

ومما اتفقت عليه أقـوال المؤرخين وتردد كثيرا فى روايات التاريخ أن جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عربا يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب ويميزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضا على غير رؤية ، وكذلك عرف الحواريون فى الهيكل كما كانوا يعرفون فى كل فلسطين .

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم « أنه لا خير يأتى من الجليل ، وفى انجيل يوحنا ان نثنائيل عجب حين قال له صاحبه « اننا وجدنا الذى أنبأ عنـه موسى » وأنه من الناصرة فى الجليل ، فأجابه مستغربا : « أمن الناصرة يجىء شىء صالح » (١) .

وفى انجيل يوحنا أيضا يروى عن رجال الهيكل أنهم كانوا يقولون متهكمين « انه لم يقم نبى قط من الجليل » (٢) .

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله فى نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ولكن هذا السبب بعينه هو الذى جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة الانسانية التى ترقبها العالم فى ذلك العصر .. فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الاخاء بين الأمم فى كنف الحجر والجمود .

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على اثر وفاة هيرود الكبير ، وانها

(١) الاصحاح الأول .
(٢) الاصحاح السابع .

دخلت هى والبادية المجاورة لها فى نصيب ابنه هـيرود انتيباس وربما كان عليه السلام فى العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك انه فى نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التى تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها ، وقد كانت مشـكلة التعصب او مشكلة السماحة الدينية حديث صباه وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الرومانى طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق الرومانى وشهد العبث من ذوى السياسة والامارة قبل الاوان ، وادرك أن العواصم تهدم وتبنى ، وان الدول تدول ، وان الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وان مجد الرياء زيف وخواء ؛ فسبحت نفسه البريئة فى آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكى ملكوت السماء : صورة غير هذه الصورة ، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام .

تاريخ الميلاد

يفهم من رقم التقويم الميلاد أن السيد المسيح ولد فى السنة الأولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهى السنة التى دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير (Exigus) الى تاريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه الى الآن .

ولم يكن الرجل صغيرا فى مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع فى زمانه فلم يسلم من الخطأ فى حساب بضع سنوات ، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات الى التقويم القديم الذى يحسبه اصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد فى سنة أربعة آلاف واربع بحساب ذلك التقويم .

اما القول الراجح فى تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات، وانه على أصح التقديرات لم يولد فى السنة الأولى للميلاد .

ففى انجيل متى أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

وقد جاء فى انجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة فى السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومة ، ومعنى هذا ان السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى سنة ٧٧٩ رومانية ، وانه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

ويذكر انجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب — اى الاحصاء — فى كل المسكونة ، وان هذا الاكتتاب الأول جرى اذ

كان كيرنيوس واليا على سورية « فذهب الجميع ليكتتبوا كل فى مدينته ، وصعد يوسف ... من مدينة الناصرة الى اليهودية .. يكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى ، وتمت أيامها هناك ولدت ابنها البكر » .

والمقصود بالاكتتاب هنا — على ما هو ظاهر — أمر الإحصاء الذى أشار اليه المؤرخ يوسفوس وارخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لان تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح اذن قد ولد فى نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو فى الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين ، فان الكاهن اللاوى عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الأحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء فى مسائل الشريعة الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح انه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعى أنه يرى ابراهيم ويستمع اليه ، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين .

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الاحصاء المشار اليه هو الاحصاء الذى ذكره ترتليان Tertullian وقال انه جرى فى عهد ساتورنينس Saturninus والى سورية الى السنة السابعة قبل الميلاد ، فاذا كان هذا هو الاحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة فى السنة الأولى للميلاد .

ومن القرائن التى لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذى قيل ان كهان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به الى المكان الذى ولد فيه السيد المسيح .

فمن المعروف أن خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم ، وانهم كانوا فى عصر الميلاد يرقبون حادثا جللا فى التاريخ البشرى حوالى سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المترقب من حين الى حين ، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل . وفى داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الالهية ، ويكفى أن نذكر بقايا هذه العادة فى البقعة الفينيقية الى ما بعد أيام المعرى لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت فى الزمن القديم ، وقد كان المعرى الضرير يعنى نفسه بهذه الارصاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصة فى لزومياته .

قران المشترى زحلا يرجى	لايقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية فى ضلال	وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رأت الفراقد والثريا	قبائل ثم أضحت فى ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل	وخلفت النجوم كما تراها

فاذا كان هذا ما تخلف من العناية بالأرصاد فى البقعة الفينيقية الى أيام المعرى فليس من الامانة للبحث أن نهمل قرائن الارصاد كل الاهمال ، لاننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه . فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الافلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفى ظهور الكوكب الذى رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات .

وقد ذكر فردريك فرار فى كتابه « حياة المسيح » (١) أن الفلكى الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحل حوالى سنة ٧٤٧

(١) الجزء الأول صفحة ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل .

رومانية ، ويقول فرار فى وصف هذه الظاهرة : « ان قران المشترى وزحل يقع فى المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول الى مثلث آخر بعد مائتى سنة ، ولا يعود الى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله الا بعد انقضاء سبعمائة واربع وتسعين سنة واربعة أشهر واثنى عشر يوما ، وقد تراجع كيلر بالحساب فتبين له أن القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية فى مثلث النونين أو الحوتين وان المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية .

ويظهر من هذا الحساب ان تاريخ الميلاد يضاهى التاريخ الذى يستخلص من التقديرات الأخرى على وجه التقريب ، وان السيد المسيح ولد فى نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد .

ونعود فنقول ان اثبات الرصد لا يستلزم الايمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الافلاك ، وكل ما يفهم ، ولا يجوز ان يهمل ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على أنها حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الاناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكى من قبيل ذلك القران فى حكم القيصر هادريان، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب امن به الربانى عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسماه ابن الكوكب « بار كوكبه بالعبرية » ونقش على العملة التى سكها صورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الاناجيل الى تلك الظاهرة الفلكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة .

* * *

على أن الدراسات الأخيرة فى علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ الذى يكتب عن تاريخ المسيح حتما الى مبحث عويص أدق جدا من المبحث الذى يدور حول السنة الميلادية ، فان القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق فى مقررات العلم القديم

ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الأنبياء والمرسلين وكان الشك يتناول كل نبى وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام: شكوا فى بوذا كما شكوا فى ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى الشك الى الادب كما سرى الى الدين ، فشكوا فى شخصية هوميروس وفى شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة فى التاريخ انها وجدت فعلاً ولكنها لم تضع ما نسبوه اليها ولم تكتب ما ينشر بأسمائها .

وقد زار فولتير — أمام الشاكين — بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجـود السيد المسيح ، وكان نابليون يسأل العالم الألمانى ويلاند : هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى وجد كما وصفوه ؟ . . وجاء القرن التاسع وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفندون بهـا أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع فى هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة فى هذا الموضوع ، فان أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التى طرقوها وخلاصة البراهين التى شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتاب ، ولكننا نجتزىء بتلخيص الاساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح ، واحدهما أنه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت أخبار عصره والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب الى الأساطير والفروض .

أما المؤرخون الذين خصـوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاستيس Tacitus وسوتيئوس Suetonius وكلهم ممن أرخوا عصر

الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه .

نعم وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة الى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة اليه ، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الاشارة الى أعظم الحوادث فى ذلك العصر ، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الاشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أما عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول : « انه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الانسان القديس — أن جاز أن يسمى انسانا بعدما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، وأتبعه كثير من اليهود والأغريق ، وكان هو المسيح » .

قالوا : ان يوسفوس اليهودى الذى مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن ايمان المسيحيين ، ولو أنه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم فى ثلاثة سطور جاءت عرضا بغير تعقيب أو تفصيل .

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذى ألف كتابه « مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة» وادرك به هجمة الشكوك الأولى فى سنة ١٨٣٦ (١) .

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ،

---

(١) Introduction to the Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures.

وان العبارة نفسها موجودة فى النسخة العربية التى تحفظهــا الطائفة المارونية بلبنان ، وان كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والاغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وان يوسيفوس قد اشـار فى موضع آخر الى جيمس أسقف أورشليم حيث قال : « ان حنانا عقد السنهدرين اليهودى واحضر أمامه جيمس اخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم امر بهم ان يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة » .

قال هورن : ولو ان أوسبياس Eusobius او من استشــهد بالعبارة المتقدمة كان قد اثبتها مختلقا لها لما عدم ناقــدا يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كســب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من الراجح جــدا أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة فى تاريخهم الأشهر فيفضحوه تفنيدا له وتفنيدا للديانة التى يدعيها .

والمع هورن الى الشكوك التى تحيط بتلك العبارة لانها لم تذكر قط فى كلام معروف قبل أوسبياس ، فقال أن هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا فى غنى عن الاستشــهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح فى نبوءات كتب التوراة .

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس الى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودى مؤمنا بالمسيحية او برسالة المسيح المنتظر، ولعله سماه « المسيح » رواية عن اتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحا ويعرفونه بشهرته الغالبة .

أما المؤرخ الرومانى تاسيتس الذى كتب تاريخه حوالى سنة (١١٥ ميلادية) فاقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع الى أقدم

من سنة أربع وستين ميلادية ، ولم يذكره مباشرة بل اشار الى اسمه فى سياق الكلام على حريق رومة حيث قال ان الامبراطور نيرون اقلقه اتهام الناس اياه باحراق المدينة فالقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون الى المسيح الذى حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت فى عهد القيصر طيبريوس » .

ولا يعرف الآن علام استند تاسيتس فى رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين اناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح .

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبرا مباشرا عن السيد المسيح ولكنه قال فى تاريخه للقيصر كلوديس « أنه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لان الأسم التبس ليه بين كرستس بمعنى الطيب وكريستس بمعنى المسيح .

وايا كان مسند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايتـه الا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثانى للميلاد ، وانه كان يحسب أن الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه فى ذلك التاريخ .

وقد عاش فى عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذى سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبرى الذى عاش فى الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى الى نهاية القرن الأول للميلاد ولم ترد فى تاريخه اشارة مباشرة او غير مباشرة الى الدعوة المسيحية .

تلك خلاصة الحجة التى تقوم على خلو التواريخ من ذكر الدعوة المسيحية فى عصرها .

أما الحجة الأخرى وهى حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الأرباب فى العبادات الشرقية القديمة ، فهى تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر فى ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، واكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الاديان المطلعين على أديان المشرق فى لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « أثنى عشر » الذى يشير الى البروج ويشير الى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد فى يوم الاعتدال الخريفى على حساب الأقدمين ، والاحتفال بيوم الأحد الذى اعتقدوا قديما أنه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم فى اللغات الاوربية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة فى اسم الام والولادة فى المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات .

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، فان التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفى أن يقال إن أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفى بولس الرسول فى نحو سنة سبعة وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة وكان تواترها قديما أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين .

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم ان المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ؛ ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الأناجيل جميعا غير ثلاث مرات ؛ فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين فى الاصحاح الحادى عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة فى مدينة « انطاكية » ثم جاء فى الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريباس أنه قال محنجا : « اهون مما تقنعنى به أن أصير مسيحيا » وجاء فى الاصحاح الرابع من رسالة بطرس : « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم .. ان احدكم لا يتألم لأنه قاتل او سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول، فان تألم لأنه مسيحى فلا يخجل » .

وجملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة أنها كانت نسبة ازدراء وتعبير على السنة أعداء المسيحيين ؛ وليس من الصعب أن يضيع الكلام عن طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن فى غمار التواريخ ؛ وبخاصة اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى ، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها فى مراجع الدين ومراجع الدولة : فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترقب فتنتها ، ولم يحدث قبل ذلك ان طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين ، وهى مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار !

* * *

ويبدو لنا ان نشوة العلم الجديد — علم المقابلة بين الأديان — هى التى دفعت أصحابها فى القرن الثامن عشر الى تحميل المشابهات

والمقارنات فوق طاقتها فاننا نرى امامنا فى هذا العصر أن هذه المشابهات لا تنفى ولا تثبت ، بل لعلها الى الأثبات اقرب منها الى النفى على الاجمال .

نحن نرى فى هذا العصر ان اتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم الى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين ، لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك فى وقوعها ولكنه يعتقد أن وليا واحدا هو الجدير باتيانها وهو الولى الذى اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء .

ونحن نرى فى هذا العصر وفى جميع العصور أن المشهور فى صفة من الصفات تضاف اليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علما لتلك الصفة فى كل ما يروى عنها وينسب اليه ، فالمشــهور بالكرم تنسب اليه المكارم جميعا بغير سند ، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها ان لم تكن تفوقهـا وتزيد عليها فى بابها .

وينبغى أن نذكر ان المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وأن المسيحيين الأوائل اعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد المسيح فى يوم كائنا ما كان، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم. وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد فى تاريخ من التواريخ، ثم اختلفت الكنائس فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد فى السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، ويرجح انها اختارت هذا اليــوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التى كانت تتخذه عيدا

للشمس وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام ؛ لأن الاعتدال الخريفى هو الموعد الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار .

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد فى طرسوس وهى مركز من مراكز الديانة المثرية ، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيرا لاقناع اتباعها بالدعوة الجديدة . فلم يزل من سياسة التبشير فى جميع الدعوات أن تيسر فى هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، اذ نقل الراهب Bade فى تاريخ الكنيسة الانجليزية خطابا لغريغورى الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوى مليتس mellitus الذى كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين الى عبادة الاله الحق : كى يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التى تعود ارتيادها » (١) .

ولا خلاف فى تكرار العدد « اثنى عشر » فى كثير من الديانات؛ ولكن تكراره هذا لا يستلزم ان يكون كل معدود به خرافةاو أسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقا بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة . اذ اقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الإثنى عشر » وكلهم من « الشخصيات التاريخية » .

وفى تاريخ الاسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون بالولاء لاثنى عشر اماما معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن ان يقال فيه انه شخصية غير تاريخية » .

---

(١) كتاب من الوثنية الى المسيحية فى الدولة الرومانية (الفصل الثانى) .
Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

على أن النقاد الذين شكوا في وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك في وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا في السيد المسيح أنه رمز من رموز العبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويقفها عن مسيرها ؛ ولم يصل الى علم هؤلاء النقاد ان اسم يوشع بن نون وجد منقوشا على حجر عند « نوميديا » بشمال أفريقية حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم « قارة حداشة » التي عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذي كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها « اننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع ابن نون » (١) .. وليس كاتبو هذا الكلام عن النبي الاسرائيلي ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفي الشبهات عن سيرته وتاريخه .

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيرا في اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا انفسهم جهدا قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث في تاريخ الأديان ان اشتاتا مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج في صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى ؟ ومن هو صاحب الرغبة أو صاحب المصلحة في هذه الدعوة ؟ واي شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجاة قبل أن ينقضي جيل واحد ؟ ولماذا كان يخفي مصادر الشعائر والمراسم الاولى ولا يعلنها الا منسوبة للسيد المسيح ؟

---

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز .
Chamber's papers

ان استخدام المقارنات والمقابلات فى تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخى الأديان من كل ما جمعوه أو فرقوه لينتهوا به الى فرض متحيز النظر .

* * *

على ان صناعة النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع ان تعتمد على الكلام المروى فى تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانه من التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما رونه الاناجيل ينبئنا فى هذه الناحية عن كثير .

فمهما يكن من فصل القول فى استقلال كل انجيل او اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كتاب الاناجيل ، لأنها علامات نفهما الآن وفاقا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل فى رؤوس الرواة المشاهدين او الناقلين .

فان روايات الاناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة الى نهايتها ، ومن التطور المعقول أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهى انسانية عالمية ، وان تبتدىء فى تحفظ ومحافظة ثم تنتهى الى الشدة والمخالفة . وان تبتدىء بقليل من الثقة فى شخصية الداعى ثم تنتهى بالثقة التى لا حد لها فى نفوس الاتباع والأشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الاناجيل دون أن يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم الى معنى تلك الأحوال .

وربما كان أوضح من هذا فى الابانة عن شخصية الداعى أن اقواله تتضمن نقدا لجميع المذاهب التى كانت شائعة فى عصره ، وان هذه الأقوال تشير الى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود فى غير تلك الشخصية .

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لا تصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين .

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لا تصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين والمتحللين .

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لا تدين باراء الفلاسفة او الابيقوريين والرواقيين .

وتنتقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرية بتاتا ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود .

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والانبياء ولكنها لا تتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدى بها اقتداء التابع للمتبوع .

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها الى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصي مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغى أن يقع ، لأن التناسق الذى يجرى مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولا سيما الدعوات فى عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت .

هذه علامات « موضوعية » لها شأنها الأكبر فى الابانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله ان الدعوة جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع .

صُورة وصفيّة

من أقدم الصور الوصفية التى حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون فى القرن الرابع وزعم رواتها انهــا كتبت بقلم ببليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبــل الدولة الرومانية ، رفعها الى مجلس الشيوخ الرومانى فى عصر الميلاد ، وجاء فيها : « انه فى هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله . وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه . شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه فى جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس فى وجهه شية ، غير أنه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس فى فمه ولا أنفه ما يعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان . مخيف اذا لام أو أنب، وديع محبب اذا دعا وعلم، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكى ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لا يميل الى الاطناب ، وملاحته فى مرآه تفوق المعهود فى إكثر الرجال»

الا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفى اسنادها التاريخية ، ومثلها جميع الروايات التى تداولها الناس فى ذلك العصر أو بعده ، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به الا انه مدسوس من أعداء المسيحية فى العصور الأولى ، كقول بعضهم انه كان قميئا أحدب دميم الصورة ، فان الشريعة الموسوية كانت تشترط فى الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب ، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معا ، وأن يخلو الكلام المنسوب الى خصومه أو أنصاره من الاشارة الى ذلك فى معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية .

نعم ان الأنبياء فى بنى اسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبى بالدمامة والحدب لا يبقى فى طى الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون اليه ليشفيهم من الشوهة والآفة .

وليس فى الأناجيل اشارة الى سمات السيد المسيح تصريحا او تلميحا يفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لأول مرة انه رائع المنظر ملكى الشارة . اذ قال له « انت ابن الله . انت ملك اسرائيل » ... واراد المسيح ان يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على اية حال تحية الاثقال للاحدب ولا للميم المشنوء .

غير أننا نفهم من اثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحى الثقة الى مستمعيه ، وذلك الذى قيل عنه غير مرة انهم أخذتهم كلماته ، لأنه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان .

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر ، يجمع الى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التى يستند اليها فى حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض او مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لأن وصاياه مطبوعة فى قوالبه من الكلام الذى لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل ارسالا على غير نسق ، ويغلب عليه ايقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس فى المقابلة بين الشطور .

وذوق الجمال باد فى شعوره كما هو باد فى تعبيره وتفكيره : والتفاته الدائم الى الازدهار والكروم والجنائن التى يكثر من التشبيه بها فى أمثاله ، عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والاعجاب

بمحاسن الطبيعة ، وكثيرا ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة ــ بحيرة طبرية ــ منبرا يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم ، ولم يؤثر عنه انه الف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق حيــث يقضى سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع فى مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء .

وقد اطبقت روايات الاناجيل على انه كان عظيم الأثر فى نفوس النساء ، يتبعنه حيث سارو يصغين اليه فى محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النســاء كأنهن مأسورات مسحورات ، ومنها من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء ، ولكن الرجل العظيم الذى يجتذب اليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويفعمها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة ، أعظم فى نفوسهن أثرا من كل عظيم، وهو الذى من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق منــاط الظنــون .

لهذا لا نستغرب ان يقال ان قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الانسان الصالح ، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا فى نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة ، ومنهن الغوانى اللواتى تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع .

وقد وصف نفسه بأنه « وديع متواضع الفؤاد » وقال ان الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة فى كثير من أقواله وأفعاله : ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ،

وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات .

الا ان هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته فى رسالته شيمة الرسل جميعا حين تعلو عندهم اواصر الروح على أواصر اللحم والدم ، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والأمهات .. « من هى أمى ومن هم اخونى ؟ .. من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو اخى واختى وامى » .. « من ليس معى فهو على ومن لا يجمع معى فهو يفرق » .. « وان كان احد ياتى الى ولا يبغــض اباه وامه وامراته واولاده واخوته ، حتى نفســه ، فما هو بقادر أن يكون لى تلميذا » .

وهذه واشباهها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريديه هى الشروط التى لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة امام السيطرة والجبروت ، ومهما يكن فيها من اساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذى لا خلاف عليه ان التجرد من اواصر المنافع والشهوات اول الآداب التى يتادب بها الجنود فى كل ملحمة : جنود الحرب فى ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة . فما بالنا بجنود الحرب فى فتوح الروح ومطالب الكمال .

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المخاطر فى سبيل الحق والهداية . ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الاقدام على الموت وجوبا لا مثوبة فيه ؛ فالخطر على الروح اذا كان موت الروح فى الحسبان . فان لم يكن خطر على الجســد ولا على الروح فلا خير فى المخاطرة ... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات .

وفى انجيل مرقس ان السيد المسيح نجا بنفســه الى جانب البحر حين علم أن الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لاهلاكه وفى سائر الأناجيل أنه كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر ، وأنه كان يدعو الله أن يجنبه الكأس التى هو وشيك أن يتجرعها ، وأنه كان يقول لتلاميذه : « نفسى جد حزينة . . . امكثــوا ها هنا واسهروا » . . وأنه كان يعتب عليهم حين يراهم نياما على مقربة منه وهو يعانى برجاءه وأشجانه ويقول لهم : ما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة ؟ . . ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء : الآن ناموا واستريحوا !

فليس الاقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس محظورا على النفس فى سبيل ذلك الجهاد ان تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العــون من عواطف المحبين ، وانما المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح ، وفى غير ذلك لا خشية ولا مخاطــرة ولا ملام .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية ، وهذه الرياضة الروحية هى التى تجعلهم منذ صباهم عرضة للتلق والتنقيب فى أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب أو الابتعاد عن طريقهم الى الله . فهم يشرفون على النور حينا ويحتجبون عنه حينا ويعودون الى طواياهم فى كل حين يحاسبونها على اشراقه أو احتجابه ، ويستبشرون تارة لأنهم يلمحون معالم الطريق ، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة لأنهم

يتهمونها بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء . وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والاستقرار وتتخذ العدة لليقين والايمان .

لا ريب أن هذه الرياضة هى التى عناها كتاب الاناجيل بفترة التجربة فى البرية حيث تعيش الشياطين ، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الاقدام والاحجام . حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى ، ثم تعاف التجربة لأنها تسليم بالشك حيث ينبغى التسليم بالثقة رسالة الله حقيقة بكل فداء واهل لكل ثمن وكل جزاء ، ولكن من لك ايها الضمير ، انك انت المختار لرسالة الله ؟ او تطلب البرهان ؟ فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الايمان .

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبرأليم ، ونحسبه بعد ذلك كان يمالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث إرادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الارادة ، فيترك الحوادث تمضى ويمضى معها وينتظر ما تحكم به المقادير ، وفى هذه المواقف يخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالاحجام مخافة العواقب ، فذاك مسعاه الى بيت المقدس فى اخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الاصحاب ودسيسة كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذى ينطوى فيه حب الاستلهام والاستطلاع: خير من طلب البرهان وخير من النكوص ما لم يكن هنالك برهان ، وما قائل فى أمثال تلك المواقف ! ليفعل الله ما يشاء ، الا وهو

يترك للمقادير ان تظهر من مجرى الحوادث حيث تجرى بها مشيئة الله .

فى لحظات كهذه اللحظات يغــوص الانسان كله فى أعمــاق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هى التى قال فيهاالناظرون اليه . انه غائب عن نفسه . أو هى التى صمت فيها لا يحير جوابا لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب، او هى التى اقدم فيها لا يبالى بسلامته وعاقبة أمره ، ولم يكن فكرا قاصرا عن استطلاع العواقب جميعا فى موقف من تلك المواقــف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها فى استطلاع العواقب ، فهل تراه لا يقدم على العواقب الا بضمان من البرهان ؟

ان اعمال اصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها ما لم نفهم معها هذه القاعدة الأساسية فى طبيعة الرسل ، وهى أن الشك أخوف ما يخافونه ، وان استبقاء الايمان غاية ما يبتغونه ، وكثير ما يقدمون على جسام الامور لأن التسليم أقرب الى الايمان ، ولأن الاحجام شك أو انتظار برهان ، والشك وانتظار البرهان يستويان فى بعض الأحيان ..

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل الى الله فى أخريات رسالته قائلا : « اللهم جنبنى هذه الكأس ، لكن كما تريد انت، لا كما أريد » .

وفى هذا الابتهال مفتاح كل عمل اقدم عليه بعد ذلك ، او اقدم عليه فى مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله ان يجنبه اياها كما أراد ، وموضع الشبهة فى نفسه الشريفة أن السلامة هى ما يريده ، وأن النكول هو طريقه الى اجتناب الكأس ؛ فليكن مسيره اذن فى غير هذه الطريق ؛ وليكن التسليم هو طريق الايمـــان .

الباب الثاني

الدعوة

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التى لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ؛ ونعنى بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية فى الحوادث الانسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا الا سبقته مقدماته التى تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه .

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ، بل هى من اقوى الظواهر التى تؤيدها وتسرى فى مسراها ؛ وسنرى بعد الاحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية ان الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين . وان العصرى القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا الى وجه العصر الجديد . وسنرى غير مرة فى هذا الكتاب ان الدعوة المسيحية جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها .

وليس أقرب الى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله فى كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدى بهذه الآفات الى علاجها الموكول الى العقيدة .

فما هى آفة العصر التى برزت فى التاريخ واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين .

كانت له آفتان بارزتان : أحداهما تحجر الاشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع . والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة فى بقعة واحدة من العالم المعمور . وعلى الخصوص تلك الأقاليم التى نسميها اليوم بالشرق الأدنى .

حجرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر على كل شيء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ؛ فكل معانى

الحياة عنـــدهم سمت وزينة وابهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج أو من النفس الى الجسد ، كما يحدث دائما فى أعقاب الحضارات ، تبدأ فى عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال .

تجمعت الثروة والكسل فى ناحية وتجمعت الفاقة والجهـد المرهق فى ناحية أخرى . فغرق السادة فى الترف ، وغرق العبيد والارقاء فى الشقاء . وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء .

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها فى يدى عدالة معصوبة العينين ، وان تفرغ الكفتان فتستويان لانهما فارغتان !

وتحجرت العقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بنى اسرائيل فاصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، واصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر وان اختلفوا على اللفظ والتأويل .

أشكال وقشور ، ولا جوهر هناك ولا لباب .

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون فى نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال .

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء ، وضمير خواء ، فلا جرم يكون خلاصها فى عقيدة لا تؤمن بشىء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شىء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على

النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل،
عقيدة قوامها ان الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وان ملكوت السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بمـا يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب .

هل كانت للدنيا آفة غير آفة المظاهر والتناحر على المظاهر؟
وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟

وهل كانت المسيحية الا العقيدة التى تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها فى غيرة خلاص ؟

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد، واتسم العصر كله بالعصبية فى السائد والمسود والحاكم والمحكوم.

الرومانى سيد العالم بحقه ، والاسرائيلى سيد العالم بحق آلهه ، واليونانى والآسيوى والمصرى كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت او يفضل الموت على الرق الذى يجمع عليه بين الذل والألم والجوع ، وأبناء الامة الواحدة طوائف طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء .

ويأتى الى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بنى الانسان وانه هو ابن الانسان ، وان الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء ، وان الكرم أن تعطى فوق ما نسأل وأن نعطى بغير سؤال ، وان ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال ، وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وان المجد الذى يتنازعه طلابه لا يستحق أن يطلب ، وان المجد الذى يستحق أن يطلب لا موضع فيه لنزاع .

ولم يأت هذا البشير فضولا على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به فى ذلك الزمن ، وأبناء الأقوام ينتظرون شيئا لا يعرفونه

ولكنهم يعرفون أن زمانهم لا يطاق ، وان حالهم لا بد لها من تحويل.

أفلست المبادات ، وجاء أحد المعبودين — قيصر رومة — فاحرق الاسفار والنبوءات ، ولم يبق منها الا ما هو أقرب الى الفن في محراب ابولون اله الفنون .

اما العبادة التى لم تفلس فقد كان رأس مالها كله نسيئة منتظرة .. وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يجدها المنكر ؛ وانما هو خلاف على العلامات، وعلى مصداقها من العيان والسماع.

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت في أوانها لم تتقدم ولم تتأخر ، وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ ، فقد كان بلاء الناس أنهم جربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم : فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء : بشارة لا تبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير .

وهذه هى دعوة السيد المسيح كما ساقتها الغيب وترقبها العالم الذى سيقت اليه ، ولو لم تكن هي طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضى عليها أربعة قرون .

وقد لقيت الدعوة أشد ما ملقاه دين من مقاومة .. فلا يفهم من هذا انها شاعت في العالم الإنسانى على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها ، فانما الدين المطلوب هو الدين الذى تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه ، وليس هو الذى يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غنى عمن يدعو اليه ، وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الأمر عن الدعاة .

ولقد تصدى رسول الاخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات وانها أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لأن الذى يدعو الى الاخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء ، والذى يدعو الى السلام يدعو الى تحطيم سلاح الأقوياء ، وليس اقتلاع

جذور البغضاء بالأمر الهين وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة حالم وليس السبيل الى ذلك سبيل الى الرضى والوفاق .

لهذا كان يقول «جئت لالقى على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم» .. وكان يسأل تلاميذه وسامعيه : « أتحسبوننى أتيت لامنح الأرض سلاما ؟ » ثم يبادر فيقول : « كلا ! وانما هو الصدام والانقسام خمسة فى البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه ، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على امها . وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة » .

ولقد كان كلام كهذا يقال على السنة بنى اسرائيل كما قال ميخا « ما فى الناس من مستقيم . كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك .. لا تأتمنوا صاحبا . لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التى تضطجع فى حضنك : ان الابن بأبيه مستهين ، وان البنت على أمها ثائرة .. والكنة على الحماة : وللانسان من أهل بيته أعداء » .

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر فى سبيل الخير ، ومن البغضاء فى سبيل الاخاء . ومن الحرب سعيا الى السلام .

وقد صحت نبوءة الرسول فى بنى قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة الى الاخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز الطراق فى جميع الارجاء .

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه واتبعوه . ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها . وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعى عبده فى طلب ضيوفه « فقال هذا انى اشتريت حقلا وعلى أن أخرج فأنظره .. وقال ذاك : انى اشتريت أزواجا

من البقر وسأمضى لاجربها .. فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المساكين .. فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبــة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من اعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن بذوق عشائى أحد من أولئــك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » .

ويمكن أن يقال فى وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التى ينظر بها القارىء الى كلام المسيح فى الأناجيل .

يمكن أن يقال انها دعوة الى حين ينتهى وشيكا بانتهاء العالم كله فى أمد قريب ، ويمكن أن يقال انها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء .

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله اذا وصفناها بأنهــا « تغيير وجهة » وافتتاح قبلة ، ولا سبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين ، فلن يخدم أحد سيدين ...

قبلة الروح أو قبلة الجسد .

قبلة الله أو قبلة « مأمون » (١) له المادة والمال .

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب .

هنا أو هناك ..

فالمهم هو الاتجاه اين يكون ، والى أى أمد يدوم ، وكل ما يلى ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وادار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين !

---

(١) كلمة آرامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية، وتطلق الآن فى اللغات الاوربية على اله المادة والمال ..

اختيار القبلة

كان الموقف — كما قدمنا — على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله فى خدمة الرب الذى يعبده ، فليس فى مقدوره أن يعبد ربين وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيدين .

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والاضداد ، لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم .

اذا كان الجيل مقبلا على محراب « مأمون » بقلبه وقالبه ، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب .

ان عباد « مأمون » غارقون فى هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذى يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا انتصاص لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير ، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان .

أو كما قال لهم الرسول البشير : « الحياة أفضل من الطعام . والجسد أفضل من اللباس .. وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان فى كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فاذا كان العشب الذى يقوم اليوم فى الحقل ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلى الايمان ... » .

نعم . واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى ... أطلبوا كنوز لا تنفد فى سماواتها حيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس .

من استدبر قبلة مأمون فهذه هى القبلة التى يتجه اليها ، وهذه هى غايتها القصوى ، وان لم تكن هى كل خطوة فى الطريق .

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :

« ما هو بقادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر علي أن يبغض إباه وامه وامرأته وبنيه واخوته ، بل يبغض نفسه .

« وما هو بقادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعنى فى طريقى » .

.. قائل هذا هو القائل :

« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، احسنوا الى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، ادعوا لمن يسيئون اليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ ما فى يدك فلا تطالبه ، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم . وأى فضل لكم ان احببتم الذين يحبونكم ؟ ان الخطاة ليحبون من يحبهم .. واى فضل لكم ان أقرضتم من يردون قرضكم ؟ ان الخطاة ليقرضون من يقارضهم .. بل تحبون أعداءكم وتحسنون وانتم لا ترجون أجركم ... »

وقائل هذا هو القائل :

« ان اخطأ أخوك فوبخه . وان تاب فاغفر له ، وان اخطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته » .

وهذا نقيض ذاك :

هذه الرحمة التى تعم الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التى تشمل بها أحب الناس الى الناس : الآباء والامهات والأبناء وذوى الرحم والقربى .

انهما تتناقضان غاية التناقض الا على وجه واحد : وهو توجيه النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التى تستدبرها .

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضى هنا أو هناك ، فلا جناح عليك أن تمضى حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك .

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجرى الحديث ولا فى هذا موضع للنصيحة والتفضيل ، وانما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان .

انما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان ، وحيث تمضى هنا مع الله وتمضى هناك مع مأمون .

ولا تناقض فى هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته ، ولهذه الغاية القصوى ينبغى أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه .

وفى مثل من الأمثلة التى تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر فى البرج الشامخ .

« من منكم — وهو يريد أن يبنى برجا — لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ » .

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الأول فى أساس البناء ، والا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء .

فمن نظر الى الأرض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذى تنص اليه الركاب ،

فهنالك القبلة التى يتلاقى عندها ما تشعب ، وينتهى اليها ما اعوج او استقام من الدروب .

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصغار وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم :

« دعوا الأطفال يأتون الى ولا تمنعوهم .. فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه » .

وقال لقوم أيقنوا أنهم ابرار واحتقروا المشهورين بالذنوب : « صعد اثنان الى الهيكل يصليان ، فريسى وعشار ..

« فأما الفريسى فراح يقول فى صلاته : حمدا لك يا الهى ! اننى لست كسائر هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة . ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم فى اليوم مرتين وأؤدى حق العشر عن كل ما أقتنيه

« وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله : ارحمنى يا الهى أنا الخاطىء.. فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور » .

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه ، ولو أنهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما انكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد . وأن يزهد فى يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده ، فانما فى الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب . وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر الا أن يزول .

وجماع القول أن الدعوة الجديدة ، كانت ككل دعوة جديدة غريبة مناقضة لما حولها ، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها اذا نظرنا الى القبلة التى تستقبلها فهنالك تلتقى الشعاب ويحسن المآب .

تجارب الدّعوة

استوفت الدعوة تجربتها فى فترة قصيرة لم تطل اكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها كانت كافية . لأنها كانت فى الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان فى الطبيعة والطريقة : وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم .

كان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذى لا يحابى ولا يتردد ، ينذر كثيرا ويبشر قليلا ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالى أن يلقى بها حطبا فى الأتون .

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس ، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون : وهما زكريا واليصابات .

وفى انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد فى شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية فى نوبته فاصابتهالقرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور ، فطال مكثه فى المحراب وجمهور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد اليه صامتا لا يتكلم ، فعلموا أنه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى انه بصر على يمين المذبح بملك واقف فا ضطرب وعرته رجفة فقال له الملك : لا تخف يا زكريا . ان الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لأنه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدس ويرد بنى اسرائيل الى الههم ، ويتقدم بروح ايليا (الياس) وقوته . .

وقد ذكرت قصة زكريا فى سورة آل عمران من القرآن الكريم: « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبياً من الصالحين . قال ربّ انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى

عاقر ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قل رب اجعل لى آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار .

وذكرت فى سورة مريم : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، اذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وانى خفت الموالى من ورائىوكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب انى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا ، يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » .

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه فى القرآن الكريم بالحصور ، وكان عليما بالكتب الدينية ، يسمعها من أبويه ويتلوها فى خلواته ، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل البرى ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعدوا . قد وضعت الفأس فى رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتى بثمر جيد تقطع وتلقى فى النار : صوت صارخ فى البرية كما قال الأنبياء الأقدمون .

ولم يكن يتقى حرجا فى كلامه عن ذى خطيئة أو دنس ، فراح يحى بهذا الصوت القوى الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية اخته وزوجها لا يزال بقيد الحياة ، فلما اعتقله الملك وجىء به الى حضرته لم يسكت ولم يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله .

وفى سهرة من سهراء اللهو التى تعود هيرود أن يحييها فى قصره ، رقصت بنت اخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤالها كائنا ما كان ، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا فى طبق ، واصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره ، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض .

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون اليهم ولا يعيشون فى زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم « يا أولاد الافاعى .. لا يهجسن باخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم ... انى أقول لكم ان الله قادر ان يخرج من هذه الحجارة ابناء لابراهيم » .

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس أن الخلاص نعمة ينسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ، ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وابراهيم .

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث ان اصطدمت بعماية الشهوات

وعناد الغرور ، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التى لا تضللها أهواء السيادة ، وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الادعياء أن يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والناموسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم : اجيبونى (أولا) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم من الناس ؟ فلم يستطيعوا جوابا لأنهم اذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم واذا انكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين .

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ، وهو شديد الحذر من اغضاب ذوى الرأى والسلطان ؛ فقد قال عنه : « انه كان انسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وان يتقوا الله » . وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه ، وهى شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت فى قبيل واحد ، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل .

* * *

والسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا ، فلم يكن متأبدا ولا نافرا من الناس . بل كان يمشى مع الصالحين والخاطئين ، وكان يشهد الولائم والاعراس ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا ان تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا : لماذا للفقراء ، فقال لهم عليه السلام « ما بالكم تزعجون المرأة ؟ انهـا

أحسنت بي عملا . وان الفقراء معكم اليوم وغدا ، ولست معكم في كل حين » .

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغروز كما اصطدمت بهما تلك الصرامة . وقد احصى السيد المسيح علي عصر هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال : « ان يوحنـــا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان ، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان اكول شريب محب للعشـــارين والخطاة » .

والرسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجـــت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادى من يستمع اليها ، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصـــارمة الأبية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية ، ولو قدر لها أن تعيش في قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمع منها المتعنتين .

الشريعة

كل مراجعة تاريخيــة لذلك العصر تنتهى من جانب البحث السياسى أو جانب البحث الاقتصادى أو جانب البحث الاجتماعى، أو الدينى ، أو الثقافى الى نتيجة واحدة : وهى ان ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ، فلا يطيق أن ينتقل بها الى العصر الذى بعده دون أن يطرأ عليه طارىء ، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل .

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه فى عصر واحد، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ الا ضربا من الرياء الاجتماعى ، لأنه معلق فى جميع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهــور الأجوف وولعها بالرياء .

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة .

لكنها رسالة لا تلزم لتأتى العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها فى تطبيق الشريعة اذا جرت على سنة الرياء ، وغلب فيه النفــاق على الصــدق والانصاف .

انما تلزم الرسالة فى أمثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه .

والآداب الانسانية هى الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسانية ويشعر بتلك الحاجة العظمى .

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين .

ويوشك مع الظلم أن يكون كل متهم مظلوما ، لأن الجريمة كلها فى جانب الحاكم لا فى جانب المحكوم عليه .

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ .

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ فى احضان الدعوة الجديدة : احضان الرسول المبشر بالخلاص والنجـــاة .

طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين فى سبيل البر . طـــوبى للودعاء والرحماء : « تعالوا الى يا جميع المتعبين والمثقلين .. احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى .. فتجدوا راحة لنفوسكم . لأن نيرى هين وحملى خفيف » .

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون انهم جائعون ، والأغنياء الذين لا يعلمون انهم معوزون ، والمتجبرين الذين لا يعلمون انهم مساكين . والمتكبرين الذين لا يعلمون انهم منكسرون .

* * *

واستجاب ضحايا الرياء لصيحة الرسول الكريم على قـــدر شوقهم الى العزاء ، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعـــة العمياء . والتقوى المزيفة ، وربما كان الأصح أن الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته

ورحمته ، وعلم ان الشكران على قدر الغفران ، وان الأمل فى التوبة على قدر الكرم فى المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . ليس لهما ما يوفيان ، فاجزلهما شكرا من سومح فى الدين الكبير » .

وكانت ضحية الضحايا فى ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا فى كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء فى كلا الجانبين ، ولم تزل فى كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على الوانها : فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الاسرة المنحلة وفتنة الحيرة التى تعصف بالثقة ... والطمأنينة الزم ما يلزم المرأة فى كل زمان .

ونظرت تلك الفريسة التى لاحقتها اللعنة احقابا بعد أحقاب، وأطبقت عليها الفتنة فى ذلك العصر خاصة آكاما فوق آكام — فاذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل فى رحمة الله بين جوانحها ، فعلمها درس من دروس الحب القدسى ، ما لم تتعلمه من دروس العقاب فى شريعة المنافقين وموازين المتسلطين ، وبرزت على صفحة الزمن فى ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرفة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهى باقية عالية : صورة الغفران ماثلة فى شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة فى شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها .

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم انه نبى ويجهل انها امرأة خاطئة ، فقال : « أتنظر الى هذه المرأة ! انى دلخت بيتك فلم يكن لقدمى فيه مسحة

من ماء ، ولكنها غسلتهما بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تمنحنى قبلة وهى منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلى ، ولم تدهن رأسى بزيت ، وهى قد دهنت رجلى بالطيب .. ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه .. »

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها ، وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالى الأبواب التى فتحت للنقمة والعقاب .

***

منذ الخطوة الأولى التى خطاها السيد المسيح فى التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل « السلطة » ويتنحى لها عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بإبطال أو بإنفاذ : لا يبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة فى زمنه ، فإنه — كما تقدم — قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهى والحكام والمتحكمين : ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه ، ولا حاجة الى مزيد من الأحكام مع فساد الحكام ، فإذا وجب إصلاح بعضها فالخير من إصلاحه لا يساوى جهد الحرب التى تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان ، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الأدومية اليهودية التى تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق ان الشر الذى ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذى يتأتى من ورائه ، ان تأتى ، وقد يدرك بإصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الانسانية

وتعليم الآحاد امثلة من الاخلاق تهدى أصحابها حيث تضلهم الشرائع والتوانين .

الا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعان ما اقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة — سلطة الدين قبل كل شيء — بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود .

جاءوا فى ميدانه بعد أن ترك لهم ميدانهم ، ووقع الاشتباك الذى لا بد منه بين سلطة شعارها المبالغة فى الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء فى الغفران .

كان التبشير بالغفران والتوبة اكبر ذنوب الداعى الجديد ، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم ، وهى على كونهـا مصلحة مريحة : باب للفخر والكبرياء .

فجاءوا يسوقونه الى حيث ابى أن يساق : وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه انه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة، فاعنتوا عقولهم فى البحث عن المشكلات والألغاز التى يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية . أو يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح .

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : ايها المعلم ! مر اخى يقاسمنى الميراث ... وظن انه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : ايها الانسان ، من أقامنى عليكما قاضيا او حسيبا ؟

وتعمدوا وهو فى الهيكل ان يضطروه الى موقف الحكم أو انكار

الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون دروسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم . هذه امرأة اخذت وهى تزنى ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك ان يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها ؟ .. ان الشرك مكشوف على وجه الأرض . وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا ... ان قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وان قال اطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبى الشرك ، ولو أنه مكشوف معروف .

سبق الى ظنهم كل خاطر الا انه ينتهى من القضية الى حل لا يدعى به السلطة ولا ينكرها ، ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذى دفعوه اليه . وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائما ورد عليهم رياءهم فى وجوههم وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه . وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر » .

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعى تنفيذها ولا يجامل رياءهم . بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان ! .

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف : أين المشتكون منك ؟ أما دانك احد ؟ ... فقالت : لا أحد أيها السيد . فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك . فاذهبى ولا تخطئى .

نعم ، لا يدينها ولا يحسب عليه انه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيها ، لأن القاضى لا يدين بغير شكوى ، وبغير شهود وبغير بينة !

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما فى ذلك العصر أن تتصدع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة فى عرف قومها ، فقال أن الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلهما الانسان وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته الا لعلة الزنا دفعها الى الزنا ، ومن تزوج مطلقة فانه زان » .

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفقيهين من متخذى العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب .

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسى » الذى نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروه والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عيله أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معا والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسديا وروحيا على السواء . فلما قيل له أن شريعة موسى توصى الأخ أن يبنى بزوجة أخيه المتوفى حفظا للاسرة ، وسألوه : لمن تؤول فى يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة ؟ خيل اليهم انه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضى الصدوقيين أو يرضى الفريسيين ، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء ، لأن الأحياء فى العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون !

والحق أن الاناجيل لا تروي لنا من هذه المساجلات الا ما نشهد أمثاله اليوم فى كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيقهون لتعجيز المعلمين والوعاظ ، وان اختلفت المقاصد من اسئلة السائلين فى كل حلقة على حسب الموضع والموضوع .

والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والاجوبة المسكتة لهى دليل آخر الى جانب ادلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون الى أهم البواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ، ووجهتها على الدوام أنها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وان مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات .. كذلك قال لكهان الهيكل وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى اسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة . فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التى تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التى تقطع اذا وقعت فى العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس فى مسلك المسيح كله فى رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه ، وقل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التى ترتفع الى الأكمل فالأكمل وتنفذ الى المعانى من وراء الألفاظ ، ويرجع الأمر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل عينا أو يدخل فى الصدور ليتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعانى الى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل .

شريعة الحب

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر ـ فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل اليه أنها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن فى تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها ، وينتهى الأمر به الى اعتبارها مسألة براعة وفطنة واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه ، والا كان ذلك مطعنا فى براعته وفطنتـه وهزيمة له أمام غرمائه المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات .

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، ويحدث هذا لكل « شريعة » صارت الى أيدى الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا فى مصر أناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتمادا على هذا النص أو تلك الحاشية ، وافتنانا منهم فى عصر العبارات ونبش الدفائن واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة فى ميدان الحوار ومجال اللف والدوران .

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى ، وانما النفس البشرية هى الفريسة التى يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة فى وجهها ، ويقدح فى غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة .. وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها !

فالشارع الماهر فى عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا .

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة .

وقد تنتفخ الأوداج بهذا الفخر علانية ، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على ادانة الآخرين .

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة فى اللعب بالألفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى ، وحتى يزول الجوهر فى سبيل الغرض ، ويزول اللباب فى سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير فى سبيل الكلمات والنصوص ، وتزول الحقائق فى سبيل الظواهر والأشكال .

واذا صار أمر الفضائل الى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنه خواء ، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق فى فضيلته ، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حياة ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهى ، ووراء العقاب والاحتيال .

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر .

وعالم الظواهر غير عالم الضمير .

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود واشكال .

وعالم طلق من القيود والأشكال ، فى ساحة الضمير .

روى انجيل متى فى الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال :

« لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس او الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل » .

وروت الأناجيل انه عمل فى يوم السبت وسخر من المحرمات التى لا تدنس الانسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس .

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم فى كل ما ابرموه ؟

ان شئت فقل انه نقض كل شيء .

وان شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة .

لأنه نقض شريعة الاشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب ، أو شريعة الضمير .

وشريعة الحب لا تبقى حرفا من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقض حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليــه .

وينبغى هنا أن نصحح معنى الناموس فى الأذهان ، فان معناه هو « القوام » الذى يقوم به كل شيء ، وناموس العقيــدة هو الأصول الأبدية التى يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمــير وجود ، فلن يزال قائما — كما قال السيد المسيح — ما قامت الأرض والسماوات .

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقــا لأنه جاء بشريعة الحب ، وهى زيادة عليه [illegible]

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب ، أما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الامر ولا ينتظر الجزاء .

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعــامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيــد عليه ، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء .

بهذه الشريعة — شريعة الحب — ، نقض المسيح كل حرف فى شريعة الأشكال والظواهر .

وبهذه الشريعة — شريعة الحب — رفع للناموس صرحا يطاول السماء ، وثبت له أساسا يستقر فى الأعماق .

وبهذه الشريعة — شريعة الحب — قضى على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس ان الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة ، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب .

وفى اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخى وجلالها الادبى بحقيقة من حقائق الواقع كما اثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير .

فكل كلمة قيلت فى هذه الوصايا فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال ، وكل مناسبة رؤيت فهى المناسبة التى تقع فى الخاطر ولا تصل اليها شبهة الاختلاق .

يلزم فى شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالى على الآخرين ، ويلزم فى شريعة الحب من يقول لذلك المتعالى على غيره المتفانى بنفسه : « لماذا تنظر الى القذى فى عين أخيك ولا تنظر الى الخشبة فى عينك ؟ ! » .

يلزم فى شريعة الفرح بالعقاب والسعى وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة فى المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يخف الى محافل الأعراس ، ويلزم فى شريعة الحب من ينهى ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء ، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر ... » .

ويلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلى بصلاته ولن

يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيا ينم عليه بعبوسه وضجره ، ويلزم فى شريعة الحب من ينهى النــاس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع .. ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغــيرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم ، وأما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لابيكم المطلع فى الصدور » .

يلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطى بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء ، وان يصوت قدامه بالابواق ويعلن صدقته فى الطرقات والأسواق . ويلزم فى شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين .

فى شريعة الكبرياء يبقى المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لانه يجلس مع العشارين والخطــاة وفى شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغى أن يقال لهم : انما يحتاج المرضى الى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران .

وقد بلغت فتنة « الظواهر والأشكال » غايتها وطغت من الهيكل الى البيت ، ومن المكتب الى السـوق ، ومن المنبر الى المائدة . حتى لقمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم الا بمقــدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم ، فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير ، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدى والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير ، وان الدنس انما يخرج من القلب الذى فيه الشر والزور والفسوق والكفران » .

***

ومجمل القول ان الخير كله كان فى حكم شريعة الظواهر والاشكال : شريعة الكبرياء والرياء . مسألة « امتياز رسمى » يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه الى الموروثات والمأثورات .

فالفضل بين الأمم « امتياز رسمى » محتكر لاسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم ، والفضل بين الاسرائيليين « امتياز رسمى » محتكر لأبناء هرون وابناء لاوى أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل فى الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون « وثيقة فى صك مرسوم » تضمن الايثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب ... « فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب ؛ بل هى محبته وحفظه القسم الذى عاهد عليه آباءكم » .

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هى الكلمة التى تقال فى كل ما ادعوه ، واما استأثروا به واحتكروه .

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة « بل الذى يعمل بمشيئة الله هو اخى واختى وأمى » .. « ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على ارائك الملكوت ؛ واما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء » .

وانما الرحمة عمل ؛ لا نسبة ولا حرفة .. وضرب لهم مثلا : انسانا « خرج عليه اللصوص فى الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت . وعبر به كاهن فأهمله ومضى فى طريقه ، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت اليه ... ولكن سامريا رآه فأشفق عليه

وضمد جراحه واركبه على دابته واتى به الى فندق واولاه عنايته ثم اخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليـــه ويعنى به ومهما ينفق عليه فهو موفيه عند مرجعه » ... قال الســـيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل : « اى هؤلاء الثلاثة أقرب الى ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذى لا خلاف عليه بداهة ان السامرى المنبوذ اقرب اليه من ابنـــاء هرون ومن اللاويين المصطفين ! .

وراح يجبـــه فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظـــوه وتفننوا فيه من الغاز الفقه واحاجى الشريعة ، فقال لهم « ان الدين بما تعمل لا بما تعلم » ... وحذر اتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم فى عملهم وان يدعوا مثل دعواهم : « لأنهم يحزمون الأوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولاً يمدون اليها أصبعا يزحزحونها ، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم ، يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع ، ويبتغون التحيات فى الأسواق وان يقال لهم : سيدى سيدى حيث يذهبون ... »

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين : « أيها القادة العميـــان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل .. انكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة ... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون — انكم كالقبور المبيضة ، خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة » .

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب والغاز الفرائض والوصايا ، وسألوه أيهما أعظم فى الناموس ؟ حسبوا انه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغـــاز ، ولكنه ترك السطور والنصـــوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعـــا فى

كلمات معدودات : « ان تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وان تحب رقيبك كما تحب نفسك » .

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق، ولا تكون العقبى انه يهدر الفرائض والأحكام وانه يستبيح ما لا يباح، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون ، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع فى سبيل الحب ما لا يصنعه فى سبيل الواجب ، وكل ما هنالك أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير ، ولا يصبح قصاراها وحى القانون وحساب الصكوك والشروط ، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف .

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير اشد واحرج من شريعة الظواهر والأشكال ، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الافعال والوقائع ، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء .

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب . اما إنا فاقول لكم ان من يغضب على اخيه باطلا يأثم ويجزى ... فإن قدمت قربانك وذكرت حقا لأخيك عليك ، فدع قربانك امام المذبح واذهب قبل فصالح أخاك !»

« وقيل للقدماء لا تزن . أما أنا فاقول لكم ان من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات فاقلعها والقها عنك فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك ...

« وقيل للقدماء لا تحنث .. واما انا فاقول لكم لا تحلفوا .. وليكن كلامكم كله نعم نعم . لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشيطان ... »

« وسمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول لهالأيسر .. ومن سخرك ميلا واحدا فأذهب معه ميلين ...

« وسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم احبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم. وادعوا لمن يسيء اليكم ويطردكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات ، فانه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للابرار والظالمين . وأى أجر لكم ان احببتم من يحبونكم . اليس العشارون يفعلون ذلك ! فتعلقوا أنتم بالكمال ، فان الله كامل .. يحب الكمال .. » .

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب ، لأن الانسان يحاسب نفسه اذا أحب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء .

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال الذى تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والاشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاء الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضا غير مقصود فى وجهته أو جزافا يقوله كل قائل ويأتى لغير مناسبة ، ومن ثم نقول أن الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شاء ، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يلحق طبيعة الشريعتين : شريعة الحب والضمير وشريعة

الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث تندفعان ويملى عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان .

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم فى مواضع اللبس على ذوى النية الحسنة ، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا ، وكل ما مشى فى سبيل الظـــواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك ، ولن يطول اللبس فى معنى من معانى السيد المسيح الا على عبـــاد الألفاظ والنصوص ، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص فى الدعوة التى تزدريها وترجع بكل شيء الى مقاصد الحب والضمير . ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة فى الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم .

آداب سياسة

كان « أوريجين » فيلسوفا ملحوظ المكانة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية . ويرى الكثيرون أنه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثانى والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين فى عصره ، غير مستثنى منهم أساتذته الأولون .

هذا الرجل قرأ فى شبابه قول السيد المسيح أن أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم فى سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفى وجب نفسه ليقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه ادرك خطاه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لأقوال السيد المسيح .

الا أن ثبوت هذه الرواية فى سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية فى عصرها الأول ، فقد كان الرجل يفقأ عينه اذا علم انها نظرت الى امرأة نظرةاشتهاء، وكان يمسخ جسده مسخا اذا راودتهالشهوات، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فاذا كان شاب فى ذكاء « أوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه فى الفطنة والدراية .

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين أوصى بكف الأعضاء عن نزعات الجسد ، فلم يعن بفقء العين الا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الاسكات ، ولم يعن بقمع الجسد الا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكان كلمنت الاسكندرى يقول بحق ان السيد المسيح لا يعنى بنبذ المال أن نرفضه بتاتا فى جميع الأحوال،

والا لم يكن الاحسان فضيلة من أكبر الفضائل فى الوصايا المسيحية، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى ان الدين يوجب الزهد على كل أحد ، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه .

الا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات فى أقوال حكماء المسيحية ، ولا يزال هذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا فى الوصايا التى تدور على رفض الحياة خاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور « شويتزر » Schweitzer الذى يرى أن السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده ان الساعة قريبة وأن الدنيا التى يهجرونها مقضى عليها بالفناء فى مدى سنوات ، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وان الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذى يدخره المدخرون للدنيا الزائلة .

وفى اعتقادنا أنه لا محل للخلاف على الوصايا التى وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوه ، فان كل دعوة فى عصر السيد المسيح أو فى عصرنا هذا ، وفى جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى ، ونظام فرق الفداء فى الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر « الجندى المجاهد » فى الموت قبل تفكيره فى الحياة .

انما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل : الى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من ابنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعا ان ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات فى اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟

أقول حقا اننى أفهم وصايا السيد المسيح جميعا ولا أجد فى فهمها صعوبة على الاطلاق اذا أنكرنا الجمود على الحروف

والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام ، واذا علمنا أنه عليـه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها في هـذا المقال : « ليس الانسان للسبت ، وانما السبت للانسان » .

لقد كان هم السيد المسيح في الاصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير .

كان همه أن ينقل الآداب من محور الى محور ، ولا قيمـة للمسافات ولا للابعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود .

كانت العروض هي المحـور الذي تدور عليـه حياة الأمم والآحاد في عصره ، فوجب أن يكون الجوهر الضمير هو محور الحياة .

كانت « الاشياء » مقدمة على النفس الانسانية ، فوجب أن تكون النفس الانسانية مقدمة على الاشياء .

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى ، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم .

واذا كان « الحطام » هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل: فسيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم .

اذا كانت « الشهوة » هي محور الحياة فسيان من يشتهي بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في طلب اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذي يدور عليه .

ولكننا نقل المحور ، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق، فينتقل كل شيء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق .

اذا أصبح كسب النفس الانسانية — كسب المحور — هو غاية الحياة فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئا من الأشياء .

اذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط .

واذا بقى المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد .

وتغيير المحور هو الذى عناه السيد المسيح .

وتغيير المحور لازم فى ذلك العصر ، لازم فى هذا العصر ، لازم فى كل زمن ننحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهـذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجا للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات فى الحياة الانسانية .

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو أنه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون فى تعذيب الجسد ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة .

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا أو الاحتمال الذى يقبـل الخلاف ، فان المسيح قد غير المحور هذا التغيير فى زمانه : غيره حين قبل انفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه ، وحين قبـل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لاتباعه فى أفراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح .

وما كان الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقـادير ومسافات : أنت تنهك نفسك لتكتنز مليونا فحسبك ان تنهك نفسك لتكتنز عشرة آلاف ، ولا تزيد .

أنت تتهالك على جميع اللذات فى جميع الأوقات ، فتهالك عليها أياما فى الأسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها فى جميـع الأيام .

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلا ولا تجعلهما شغلا شاغلا بغير انقطاع .

كلا . لم يكن الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير

ومسافات ، وانما كان على الدوام مسألة « محور » ينتقل، أو مسألة « باعث » يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها فى مسافاتها ومقاديرها ، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذى انحرفت عنه أو الى محور جديد .

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك ما يقول وهو يقول : « من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء » .

أترى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطى هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا . ما كان يفوته ذلك ولا زيب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الانسانية هى المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص .

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها ، بمثل من الأمثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فليكن العطاء حبا وطواعية ، لأن من يعطى مجبرا أو يعطى مالا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه .

وليس كذلك من يعطى لأنه يريد العطاء : انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه ، ومن كان لا يبالى أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء .

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيدا واحدا ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما أراد .

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه .

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه .

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور .

ونحسب أن النهى عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين ما هو مباح وما هو محظور فى طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله ولا نجاة لانسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال .

وبحسن بنا على الجملة ان نذكر ان السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع فى مكان مجتمع . ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم به ضمير الفرد وضمير الامة ، وأقامها لعى اساس واضح فى وصايا متعددة لا تضارب بينها .

فالجسم أفضل من الطعام واللباس .

والانسان أفضل من السبت .

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العـالم .

ومملكة الضمير فى قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان .

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها فى كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكي تفهم ، وعندها فى كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور .
وهذه الحذلقة هى التى حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبى ولا لحكيم .

ان الحذلقة هى التى أبت أن تفهم حين قال القـائل : ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره ... أفليس فى هذا الكلام شىء يفهمه السامع ؟ بلى . وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل .

ولكن الحذلقة هى التى قالت فى جوابها تلك النصيحة : ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما اكلها العصفور .

ان الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرت العمل ؟ . كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير ، ولكنهما يستويان على الأقل ، ان لم يكن التأخير خليقا ان يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلا من فرد منقار وفرد عين . . !

كذلك يقول السيد المسيح : من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما فى حوزته ؟

أفليس فى قول السيد المسيح ما يفهم ؟ بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد الا ظهورا « على حساب » الفهم والعمل كمـا يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد فى الأمر هو امتحان المعطى الذى يقتدى به فى الاحسان ، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ، وانما الخلاف الذى يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضلة السماحة والايثار .

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضـاء والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة فى قياس المسافات ولا تقدير المقادير .

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقـال الا الى حين وفى حيز محدود ، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجـديدة الى حساب الانسـانية ، وشأن الانسانية بعـد ذلك جديد .

ملكوت السّموات

« انك لا تهـدى من احببت ولكن الله يهـدى من يشـاء وهو أعلم بالمهتدين » .

« قرآن كريم »

هـذه آية كريمـة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سـيما الدعوات الدينية الكبرى . وما من شيء هو ادعى الى التدبر الطويل وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التى تنتهى اليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ما قصدوا اليه، ثم يمضى الزمن وتنطوى المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعواه كان أهدى من طريق أصحابها ؛ كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير فى عنان الحكمة الأبدية ، دون أن يعلم الدعاة أو بعضه المستجيبون لها الى أين تسير ، والى أين يسيرون .

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟

ان الهجرة من مكة المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية ، فلو انها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستنبد فيما معتقد بزوال ذلك الحـادث الذى كان محسوبا من العقبات . بل أكبر العقبات فى صدر الاسلام .

وماذا لو أن بنى اسرائيل فى عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له ابواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غاية الأمر ان نبيا من الأنبياء يضاف اسمه الى أسماء الانبياء فى كتاب العهد القديم ، وتبقى اسرائيل فى عزلتها كما كانت،

ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت فى التاريخ منسية لا تذكر ، او تذكر كما تذكر أصغر القرى التى تحكمها رومة الخالدة : رومة القياصرة والجبارين المتألهين.

فمما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى . ومن البديه ان يريدهم قبل ان يريد أحدا غيرهم ، لأنهم عشيرته الاقربون ، ولأنهم اصحاب الكتب التى تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب .

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للامم ؟ لأنهم أبناء امة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الأمم كافة ، وهم غير مختارين .

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ، ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلىء تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقه فى الخطاب كان ينتر المرأة الفينيقية التى أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التى يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به الى الكلاب .

وكان هذا الايثار بديها كما قلنا من وحى الفطرة ووحى الكتب والدراسة . وكان كذلك حتمة من حكم الدعوة التى يراد لهـا النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الاقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصى الاقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن تدنى اليه أحدا من اولئـك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وثارات الانتقام .

فماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على احسن حال وأيسر احتمال ؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد !

ان استجابوا جميعا إلى الدعوة فقد دخلت الدعوة فى نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شىء فى غير ذلك النطـاق المحدود .

وان لم يستجيبوا جميعا ، واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الأمر انها فرقة تضاف الى فرق الفريسيين والصدوقين والآسين والغلاة ، بل قد حدث فعلا أن فئة من بنى اسرائيل قبلت المسيحية على انها « طائفة يهودية » سميتبالطائفة « الابيونية » أى طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى الى اليمين ولا الى اليسار ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين !

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس الى شرق الاردن ، اعتزلت كنائس اسرائيل واقامت شرقا حيث تحرم الاقامة على سائر اسرائيل ، وظلت ردحا من الزمن لا هى اسرائيلية خالصة ولا هى مسيحية خالصة ، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الابيونيون .

لقد مر بنا المثل الذى ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين : مثل الأمير الذى أولم الولائم ، وارسل الى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه فى طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد ، وتعلل كل منهم بعلة تؤخره الى ما بعد يوم الوليمة ، فأقسم لا يحضرنها أحد بغلته الدعوة ، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر ، ومن تزويه الأزقة أو تقذف به الطريق ، وابى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف ، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة ، وهكذا تعمر وليمة السماء التى يتأخر المدعوون اليها ، ويتقدم اليها من هم أحق بها ، لانهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون .

قال السيد المسيح لمن دعاهم والحف فى دعواهم فأنكروه والحفوا فى انكاره : « ان الحجر الذى رفضه البناءون صار على رأس

الزاوية .. ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لامة تؤتيه ثماره .. من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه.. هناك يكون البكاء وصرير الانسان ، هناك يدعى الكثيرون ولا ينتخب الا القليلون » .

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلت وصاياه التي يخص بها « الامة » ويفردها بين الامم ، وكثرت فى وصاياه الآداب الانسانية التي يستحق بها الانسان ملكوت السماوات ، فردا فردا كائنا ما كان شأن الامة التى ينتمى اليها ، وفهم السامعون من الملكوت انه حق لمن يقصده من بنى الانسان اجمعين .

غير ان ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الاناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد فى جميع الاناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله ، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحيانا أن يذكر فى جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الانسان .

كذلك يبدو من بعض الاقوال انه حاضر على الابواب ، وان من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا فى ملكوته (١٦ متى) .

ويبدو من اقوال اخرى ان المدى بعيد وان الضلال فى دعواه طويل الأمد « لا يضلنكم أحد . فان كثيرين سيأتون باسمى فيضل بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد .. بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتحدث مجاعات واوبئة وزلازل فى اماكن شتى ، وهذه كلها بوادر الاوجاع ، ويسلونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم فى سبيلى .. ثم يأتى انبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، وتفتر

محبة كثيرين ، ولكن الصابرين الى المنتهى ينجو ، وينادى ببشارة الملكوت هذه فى انحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم » .
(٢٤ متى)

واحيانا يأتى الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجىء مجهول الموعد : « اسهروا اذن لأنكم لا تعلمون فى اية ساعة يأتى ربكم .. ولو عرف رب البيت فى أى هزيع يأتى السارق ما سرق . . فاستعدوا أنتم كذلك . لأنه فى ساعة لا تخطر لكم يأتى ابن الانسان » .

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر فى هذا الجيل .

ويشار الى الملكوت أحيانا بمعنى مشيئة الله واوامره وفرئضه : « اطلبوا أولا ملكوت الله وبره » (٦ متى) « وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » (١٣ متى) .

وأحيانا يطلق على الرسالة التى يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « أجعل لكم ملكوتا كما جعل لى ابى ، ويقول لوقا ان التلاميذ والاتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح ذاهب الى بيت المقدس ان ملكوت الله عتيد أن يظهر فى الحال » (١٩ لوقا) .

وقد رأينا فى كتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوى الآراء ، كأنها أمر غير منتظر فى تقديرهم ، وهى فى اعتقادنا أقرب شىء الى البداهة وطبائع الأمور .

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذى يفهم كل سامع أنه هو العالم الآخر ، وانه يأتى فى نهاية هذا العالم ، وانه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التى جعلت له علامات ، والى كلام المفسرين

والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة ، واختلفوا هل يأتى المسيح المرتقب ثم يعود، أو ينتهى العالم الأرضى بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك فى هذا العالم الأرضى المعهود .

وطبيعى جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب فى هذا الصدد . بل الغريب أن يخلو كلام السيد من هذا النذير ، سواء ظهر فى ذلك الوقت أو ظهر بعده فى زمن تتطلع فيه الانظار الى النهاية والى تحقيق النذر والبشائر والعلامات .

فاذا ادخلنا هـذا الملكوت بهذا المعنى فى تقـديرنا فليكن فى الحساب أنه باب من ابواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيـه الاخرى ، ولا سيما الملكوت الذى تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة ، كما هو الواقع فى جميع الرسالات .

ففى رسالات الأنبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق فى السماء وملكوت يعمل له الناس فى هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها فى هذا العالم فيستحقون بها الملكوت فى العالم الآخر .

.. هذا الملكوت ايضا ـ ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الانسان ـ يقنع فى البـال حتما ان السيد المسيح قد تكلم عنـه ووصف لاتباعه مطالبه ووصاياه .

ولا بد من لبس هنا مع اللبس الذى يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة ، وتوجيهه حينا الى الملكوت القيامة .

أما اللبس فى فهم الملكوت الذى يدور على الرسالة المسيحية ــ أو رسالة ابن الانسان ــ فمرجعه من جهة الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها فالملكوت فى الدعوة التى يخص بها

الاسرائيليون غير الملكوت فى الدعوة التى لا يخصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعم الأمم أجمعين .

ومرجع اللبس من جهة اخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا البس اذا دعى
رسالة اسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا ان يفهموه .

ولا نر ان المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والاتباع قد برزت فى موضع من المواضع بروزهم فى الأسئلة التى توالت منهم عليه وفى الحيرة التى دلت عليها هذه الأسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذى يستدعى من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد الى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظل التلاميذ يحسبون ان الملكوت يأتى بدولة بنى اسرائيل : « فسألوه قائلين : يا رب ! هل فى هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل ؟ فقال لهم : ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى أودعها الأب سلطانه .. لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح القدس ، وستكونون شهداء لى فى أورشليم وفى اليهودية جميعا ، وفى السامرة ، والى اقصى المسكونة » .

ونعود فنقول ان اللبس طبيعى جدا فى هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين ، وان هذا التفاوت البعيد هو الذى يؤدى بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن فى طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه ، وكل ما فى استطاعتهم أن يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها ، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الألفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة

واحدة فتلك هى الآية على صحة تلك الصورة ، وانهـا هى الوصف المقصود .

والاناجيل قد ذكر وصفا متناسقا للملكوت فى مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة فى ضمير الانسان فى كل زمان ، اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لا يجديه ، وذكرت مملكة لا يدخلها الانسان الا بنفس طاهرة ، امنية كنفس الطفل البرىء ، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأن ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . « ولما سأله الفريسيون متى يأتى ملكوت الله ؟ اجابهم : انه لا يأتى بمراقبة . ولا يقول قائل هوذا ههنا وهوذا هناك ، لانه هو الآن فى داخلكم » (١٧ لوقا) .

فالذين استغربوا الأوصاف ولم يروا فيها الا التناقض والشكوك ! ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟ وعلى اية صورة كانوا ينتظرون ان تأتى غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ ، ومع حضور الملكوت فى اذهان السامعين بمعنى القيامة وورود احيانا فى كلام السيد المسيح بهذا المعنى ؟ بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتى على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لا بد منه بين كلام موجه الى امة خاصة وكلام موجه الى جميع الامم ؟

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب فى الغربال الذى لا يعمل عمله وفى حامل الغربال الذى ينسى ان الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص .

اذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا ، وتسنى لنا أن نخرج من تلك الخطوط والاشكال كلمات تم بها جملة مفهومة ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة

المنقولة ، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلا الناقل الذى يستطيع أن يزيد على الكلام او ينقص منه ، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه .

* * *

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة ، ومن امة واحدة الى سائر الامم ، بل الى « الانسان » فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل انسان .

وحدث هذا التحول والعالم الانسانى متهيىء للدعوة الجديدة من اعماق وجدانه ، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر أغوارها .

والعالم الانسانى يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها ، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها او الى شيء من قبيلها .

مثله فى ذلك مثل التربة التى ينفعها المطر لانها مهيأة له متعطشة اليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الاغوار .

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الامم والأقوام ، ولكنها قد وجدت فى بقاع من الأرض ولم توجد فى سرائر الضمير ، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفوز العصبية ، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها الى الاخوة والصفاء .

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام امام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الاخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لاناس من جميع العصب والسلالات ، لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، أما فى ربقة الرق الصراح أو فى

ربقة اخرى لا تقل عنها فى القسوة والنقمة ، وهى ربقة الحرمان والقنــوط .

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثنى عن رسول بجمع الأقوام الى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه ان يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم ، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد ، وكل ما يحدث فى الأديان الوثنية ان تغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملهــا على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها ويفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الارباب والاصــنام

أما الحماسة الرُوحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الانسانى فلم تعهد قط فى غير الأديان الكتابية أو الأديان الالهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بالله اعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا فى قومه، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيتــه فى ساعة الحاجة اليه ، وانها لآية من الآيات التى يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين ، لأنها من التوفيقــات التى يكون القــول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير .

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدى الوثنية فى صولتها وسلطانها ، فان الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة، اما هذه الرسالة ـــ رسالة الملكوت السماوى ـــ فقد نشأت فى

عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم يمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح ما رووه عن جوليان — سواء قاله أو لم يقله — فانتصر « الجليلي » بملكوته السماوي على ممالك القياصر ، وضم القياصر الى حاشيته ، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله !

الباب الثالث

أدوات الدعوة

قدرة المعلم :

اذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة فى العـــالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل ، وهما أن العالم كان عند انتشارها محتاجا اليها ، ومستعدا لسماعها ، وهما شيئان مختلفان لا يذكران فى معرض الترادف والتماثل ، لأن الحاجة الى الدعوة كالعلة ، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء ، وقد يتفقان فى وقت واحد ، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل .

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التى لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العــالم فى عصر الميلاد كان محتاجا الى الدعــوة المسيحية ، مستعدا لسماعها ، سواء قصرنا الــكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم أجمع .

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده فى تلك الحقبة من الزمن ، والعالم المعمور كان يؤمن ايمانا «سلبيا» بافلاس الوثنية واقفار النفــوس من الرجاء ، وكان عامتـــه فى بؤس ويأس ، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف ، من كان منهم يفكر دان بالابيقورية أو دان بالرواقية ، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث فى شئون الغيب ، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التى تحــل فيها المراسم والشعائر محــل الفرائض والعبادات .

وقــد يكون الكثيرون من الخاصة بمعــزل عن الابيقورية والرواقية والنحل السرية ، فهم اذن فى حالة الخواء الذى يسبق الامتلاء ، وأسلم ما يقال عنه فى صدد العقيدة المقبلة أنه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها ، وانه قد يتفتح بقبولها فيــكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها .

كان العالم فى عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما فى ذلك ريب ، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاســتعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك العقيدة عفوا صفوا بغير جهاد من رســلها ودعاتها ، وبغير كفاية عالية فى أولئك الرسل والدعاة .

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن ادوات الفلاح والنجاح . واولها قدرة الداعى على كسب النفوس واجتذاب الاسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعنــاد .

وقد كانت هذه القدرة موفورة فى معلم المسيحية ، وبحق سمى المعلم ونودى به فى مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحى حيوى من طريق التعليم .

نودى المسيح بالمعلم فيما روته الاناجيل مرات : ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين .

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لانهم يجدون فى كلامه علمــا واسعا بالكتب والاسفار ، وبديهة حاضرة فى الاستشهاد بهــا والتعقيب عليها ، ويكفى ما بين أيدينا من الاناجيل للجزم بانه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب ارميا واشعيا وحزقيــــال فضلا عن الكتب الخمسة التى نسبت الى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب فى تطبيق الوصايا والأحكام .

ويرجح بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وأن الحــديث الذى دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة فى عصره بين أبناء الجليل ، وكان كثير من اليهــود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الارامية ويحتاجون الى ترجمــا

الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج الى بيت المقدس فى الأعياد ؛ ومن ابناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون الى الاسكندرية وبلاد الاغريق ولا يتفاهمون بغير اليونانية مع ابناء جلدتهم هناك ؛ فلا غرابة فى معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من ابناء الجليل ، ولكن المحقق انه كان يعرف العبرية الفصحى التى تدرس بها كتب موسى والانبياء ، وانه كان يعرف الآرامية التى كان يتكلمها كلام البلغاء فيهـــا ، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة ، لأن اقواله خلت من الاشارة الى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة . ولأن العبارات التى جاءت فى الأناجيــل اليونانية منسوبة اليه تشف عن أصــلها الآرامى بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الألفاظ.

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود فى تلك الآونة ، فربما كان فى بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح ، واقتدروا على الاستشهاد بها والتعقيب عليهـــا بمعارضة قوية وبديهـــة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفــاية المعلم الذى يبث الحياة الروحانية فى النفوس وينفث فى الخواطر تلك الراحة التى تشبه راحة السريرة ، حين تتناسق فيها الانغام التى كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ .

لقد كانت اللغة التى حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة فى القوة والنفاذ .

كانت لغة فذة فى تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة فى بلاغتهـــا وتصريف معانيها ، فذة فى طابعها الذى لا يشبهه طابع آخـــر

فى الكلام المسموع أو المكتوب ، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب .

كانت فى تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنصوم ، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الاعاريض والتفعيلات التى نعرفها فى اللغة العربية ، لأن هذا النمط من النظم غـير معروف فى اللغة الآرامية ولا فى اللغة العبرية ، ولكنه أشـبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقـابلة والتصريعات المرددة التى ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وان كانت لا تتكرر بلفظها المعاد

كان أسلوبه فى ايقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير ، وليس فى الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما فى هذا المثال :

« اسألوا تعطوا .

« اطلبوا تجدوا .

« اقرعوا يفتح لكم .

« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له البـاب .

« من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا .

« أو يسأله سمكة فيعطيه حيـة .

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقـربا .

« فاذا كنتم — وانتم أشرار — تحسنون العطاء للابناء ، فكيف بالاب الذى فى السماء يعطى الروح القدس لمن يسألون » .

او كما فى هذا المثال :

« كما فى أيام نوح كذلك يكون فى أيام ابن الانسان .

« كانون يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، الى اليــوم الذى دخل الفلك وجاء الطوفان واهلك الجميع .

« كذلك فى أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذى خرج فيه لوط من سدوم أمطرت نارا وكبريتا من السماء فاهلك الجميع .

« هكذا يكون فى اليوم الذى يظهر فيه ابن الانسان .

« فى ذلك اليوم من كان على السقف وامتعته فى البيت فلا يهبط اليها ليأخذها .

« ومن كان فى الحقل فلا يرجع الى الوراء . الا تذكرون امراة لوط ؟

« من طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن اهلكها يحييها .

« اقول لكم فاستمعوا : فى تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه .

« وتكون أثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الأخــرى

« ويكون اثنان فى الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك .

« . . . حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور » .

***

وقريب من هذين المثالين نذيره لاورشليم :

« يا أورشليم . يا أورشليم !

« يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين .

« كم مرة أردت أن اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها .

« ولم تريدوا :

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب » .

وقريب منه نذيره لبنات اورشليم :

« يا بنات أورشليم !
« لا تبكين على ، وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين .
« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والشــدى التى لم ترضع .
« أيام ينادون الجبــال أن تسقط عليهم ، والآكام أن تكون غطاء لهم .
« ان كان بالغض الرطب يصــنع هذا ، فباليــابس ماذا يصنعون ؟ » .

* * *

هذى النماذج فيها نقص الدلالة على أسلوبه فى تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير .
أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال فى كل قالب من قوالب الأمثال ، ومنه القالب الذى يعول على الرمز ، والقــالب الذى يتول على الحكمة، والقالب الذى يعول على القياس، والقالب الذى يعول على التشــبهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هــو طابعه الذى انفرد به بين انبياء الكتب الدينية بغير نظير ، وأن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال .

فمن نماذج المثل الذى يعول على الرمز مثل الزارع والبذور .
« زارع خرج ليزرع وفيما هو فى الطريق سقط بعض البــذور فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضها فى مكان محجر خفيف التربة فنبتت على الأثر ثم لم يلبث أن اشرقت عليــه الشمس فاحترق ، واذ لم يكن له عمق فى جوف الأرض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشـوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها فى الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . من له أذنان للسمع فليسمع » .

ومن نماذجه مثل فتيات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنات وخمس غافلات . أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا ، وأما الفطنات فأخذن الزيت فى آنيتهن مع المصابيح ، وابطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعا ، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل : هاهو ذا العــريس قد اقبــل فاخرجن للقائه ، فالتفتت الغافلات الى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن : لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيــث يباع . وفيما هن ذاهبات قدم العريس ... وصحبته الحاضرات المستعدات الى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين . افتح لنا يا سيد ... افتح لنا يا سيد . فأجابهن من أنتن ؟ انى لا أعرفكن ! » .

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة .. من يقبل على لا يجوع » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر أمام الخنــزير » ... « بالكيل الذى تكيلون يكال لكم » ... « أيها المداوى داو نفسك » .. « خمر جديدة فى زقاق قديمة » .. « لا تدع يســارك تعلم بما تصنع يمينــك » .. « من ثمارهم تعرفونهم » .. « لا كرامة لنبى فى وطنه » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على القياس : « ان كنتم تحبون من يحبونكم فأى فضل لكم ؟ أليس ذلك شأن العشــارين ؟ »

ومنه فى تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالأصحاء الى طبيب ، وانما المرضى يحتاجون الى الأطبــاء » ، ومنه : « ان كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون ! » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه

« أنتم ملح الأرض ، فان فسد الملح فبماذا يصلح ؟ انه لا يصلح اذن الا لأن يلقى على التراب ويداس . أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضىء به جميع من فى الدار » .

ومن نماذجه : « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص . وحيث يكون الكنز يكون القلب » .

وقد اثر عن السيد المسيح فى جميع الأمثال حب المقابلة بين الاضداد لجلاء المعانى وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة : « يرون القذى فى أعين غيرهم ولا يرون الخشبة فى اعينهم » .. « يحاسبون على البعوضة ، ويبلعون الجمـل » .. « فى الظاهر جدران مبيضة وفى الباطن عظام نخرة » ... « غنى يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل فى سم الخياط » .

ومعظم هذه الأمثلة تأتى فى مناسباتها عفو الخاطر ، جوابا على سؤال ، أو تعقيبا على حادث عارض ، أو تقريعا لمكابر ، فيندر ان يسترسل فيها المعلم البصير الى غير المناسبة التى توحيها ، ولهـذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتواليـة فى المقاصد المختلفة لم تصدر عنه فى سياق واحد أو جلسة واحدة ، وان الخطبة على الجبل — وهى أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات — جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب الموضـوعات فى أوقاتها ومناسباتها .

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه فى أوقات مناجاتها فانتظمت فيهـا كما تنتظم المعـانى المنسوقة فى

البديهــة المهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه فى غــير هذه الأحوال ، فتجرى كلماته فى مجراها المألــوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل ، ولكنه فى الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له من التحضــير أن الفكر الذى يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وأنه تعود التفكير فى المواقف المتشابهة فانسبكت قوالب التعبير فى بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة ، وهى عادة يعرفها من تعودا التفكير ، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد ســمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية فى لحظة من لحظات الارتجال الفيــاض بين الشــعور المتجاوب والجماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبــل غيرهم أنهم يسمعون كلاما معهودا ، ويوشك أن يتساءلوا : أين يا ترى سمعوه قبــل الآن ؟ والواقع أنهم نقلوه من وعيهم الخفى الى وعيهم الظــاهر فكان شأنهم كشــأن سامعيه فى استغرابه ، والواقع أيضا أن الناس حين يستمعون اليه يرونه غريبا وقريبا فى وقت واحد : غريبــا لأنه كان يساورهم ولا يدركونه ، وقريبا لأنهم تمثلــوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك .

* * *

ومن كان كالسيد المسيح تربى منذ طفولته على التلاوة فى كتب الأنبياء وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة ، والأمثــال المرددة ، واستقامت فطرته على الوحى والايحــاء فليس أقرب اليه من أن ينطلق بكلام يحيك فى الاسماع بهــاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته ، وهذه هى البديهة التى كان يعنيها حين يوصى تلاميذه بالاعتمــاد على الطبع وترك الاهتمام بالتزويق ، والتمهيق قبل الســاعة التي تدعوهم دواعيها للخطاب .

ولعل سامعى العظات الدينية فى عصر المسيح قد سمعوا الأمثال فى قوالبها مرات كثيرة ، ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلمــا دخلوا معبدا أو استمعوا الى خطيب فى غير المعابد ، فأن نقاد البيان العبرى والارامى يردون هذه الصيغ البيانية الى عصــور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعا للأمثال ولا لقوالبها التى تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الأمر المحقق أن سامعى ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الاريحية التى كانت تشيع فى أطوائهم وهم يصغون باسماعهم وقلوبهم الى ذلك المعلم المحبــوب الذى كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة فى أعمــاقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفــرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولى عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور .

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل الى سامعه أنه يبتعد من مصدره كلما أصغى اليه ، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيــل الى سامعيه ان كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدنى مســافة وتزيل وحشة بين القائل والسميع .. من هذا البيان كان بيان المعــلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيــد ، وفى وسعنا أن نتخيــل أولئك المستمعين البسطاء يقبلــون على الاستماع وهم فى ظــلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح فى أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين اضداد فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذى يســترد بصره مشدوها بالرؤية لأول مرة ، أو شعور المدلج الذى يصحب الليل من السحر الى الفجر الى

الصباح : هداية فى رفق ورحمة ، واقتراب فى غير عنـاء ولا اقتحام .

فى وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة .

وفى وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول فى الرسالة . فلا رسالة فى الحق بغير رسول ، ولا سبيل الى قيام المسيحية بغير مسيح ، فأن مصدر الرسالة الروحيـة هو زبدتها وجوهرها . وهو الأصل الأصيل فى قوتهـا ونفاذها ، وكل ما عداه فـروع وزيادات .

لقد كان لب الرسالة المسيحية فى لب رسولها المسيح : هداية انسان لاصولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والافهام ، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق فى الميدان لأنه صاحب السبق فى الدعوة وصاحب السبق فى الشهادة ، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها ؛ وصاحبها هو المسيح .. وكانت حاجة العالم كله الى الدعـوة المطلوبة لا تكفى بغير صاحبها القادر عليها .. والصـالح لاقامتها ؛ لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبـداهة ما هو محتاج اليه .

اخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول فى كل دعوة انهم دعاة ، أى انهم شركاء للمعلم فى نشر الدعوة .

أما الفضل الأول للتلاميذ فى الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم الى صفوفهم ، بل كانوا فى الواقع هم الصف الأول السابق الى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله ، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم فى قبول الدعوة سواء .

كان فضل التلاميذ فى الديانة المسيحية انهم أول القابلين ، ولا بد أن نلعم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين .

فالتلاميذ بالنسبة الى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدى بتلك الأمة الصغيرة فى الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلتهم وهم الصف الأول فى الجيش الواحد . وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوى اليه .

كانوا نموذج الأمة المسيحية فى أول الرسالة . ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهى لا تخالف هذا النموذج فى التكوين ولا فى الطراز ، ومن هنا نقول أن التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا وراء رعيل .

ان الدعوات قادة ومقودون .

ولكن التلاميذ فى الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم ، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق فى بنيتها بين أولين وآخرين .

وليس فى سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة فهم جميعا من بيئة واحدة . وربما كانوا جميعا من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة ، كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين ، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدى السيد المسيح .

وكان السيد المسيح ينظر الى بعضهم فيقول له : اتبعنى ، فيتبعه ولا يظهر عليه انه افضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية الا أن تكون المزية التى يتوسمها فيه السيد فيدعوه من اجلها ، وهى مزية الاصغاء والاتباع .

ولم يبد منهم انهم اقدر على فهمه من الآخرين ، فلو اصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوا فى مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول ، لأن كفاءتهم ولا شك هى الكفاءة الوسطى فى كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة ، فلم يكن منهم علم بارز لا يتكرر بهذه النسبة فى أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى ، فلا يقال فى واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من الف لا يتكرر ، أو أن واحدا منهم تعلم ما لا يتعلمه امثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل ما يقال انه مجند يشبهه غيره من المجندين ، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب .

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء فى الأناجيل .

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار أنه كان اختيارا نادرا أو مستعصيا على القائد الحكيم الحصيف ، ولعل العامل الأكبر فيه أنهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة ، وان اجتماعهم هكذا خير واصلح من اجتماعهم بددا من بيئات متباعدة ، فان المتآلفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين .

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أن يقرب الى الأذهان هذا المعنى الذى نرى له المكان الأول فى فهم الدعوة وأسباب سريانها .

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون فى شروط التجنيد ، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الأخرى تضارعها على الجملة فى شروط التجنيد .

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التى نفثتها فيهم روح المعلم القدير .

كان يعرف عيوبهم . وكانوا فى أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم فى تلك العيوب :

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيدا من التوضيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه . وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أن يزيدهم ايمانا ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون امثال هذه الشكوك .

ولم يحسب قط انهم طود لا يتزعزع وانهم عزيمة لا تتضعضع وانهم يواجهون المحنة فى كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما امام هول من الأهوال .

فقد انبأهم أنهم سيتخلون عنه ، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه ، وقد لامهم غير مرة لانهم يتنافسون على السبق او لأنهم يستبطئون جزاءهم على الايمان ، أو لأنهم — بعد وعظهم وتذكيرهم — لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم اكثر مما نظر ، أو تفوته منهم فى اوائلهم حالة ظهرت له فى اواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية : علم انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوبا من الناس فى العالم

الواسع أن يدركوا مقاما من الايمان فوق مقام الاخلاص وحسن الاستعداد لاصلاح العيوب ، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل اليهم أن يسيحوا فى أرض الله ويجعلوا من انفسهم مثلا يقتدى به المخلصون :

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لا عيب فيه ولا مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوه .

* * *

ومن العبارات ذات المغزى الكبير فى الانجيل أن المسيح مضى شوطا بعيدا فى دعوته ولم يقل لهم أنه هو المسيح المنتظر . فشاع ذكره فى القرى وتساءل الناس عنه : من يكون ؟ فمنهم من يقول انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول أنه الياس ، ومنهم من يقول أنه نبى مبعوث ، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه : وأنتم من تقولون انى أنا هو ؟ فأجابه بطرس : أنت المسيح . فانتهره واوصاهم الا يذكروا ذلك لأحد فى رواية انجيل مرقس . أما فى انجيل متى فقد روى أن بطرس قال : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » فأجاب يسوع وقال : طوبى لك يا سمعان ابن يونا . أن مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه ابى الذى فى السموات ، وانا اقول لك انك انت بطرس (١) وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وابواب الجحيم لن تقوى عليها ، واعطيك مفاتيح

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما فى العربية وبطرس « بيتر » هى ترجمة الكلمة باليونانية .

السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات ثم أوصى تلاميذه الا يقولوا لأحد أنه هو يسوع المسيح » .

أما فى انجيل لوقا فالرواية أقرب الى رواية انجيل مرقس : « ففيما هو يصلى على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا ماذا تقول الجموع عنى ؟ فأجابوا انهم يقولون يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون الياس وآخرون يقولون أن نبيا من القدماء قام . ثم سألهم: وأنتم من تقولون ؟ فقال بطرس : مسيح الله . فانتهرهم وأوصاهم الا يقولو ذلك لأحد » .

والرواية فى يوحنا أقرب الى تصوير ما قدمناه ، فان السيد المسيح أحس أن الناس يتراجعون عنه « وأن كثيرا من تلاميذه رجعوا الى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثنى عشر : ألعلكم أنتم تريدون أيضا أن تذهبوا ؟ فأجاب سمعان بطرس : يا رب ! الى أين نذهب ؟ كلام الحياة الأبدية عندك ، ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح ابن الله الحى . فأجابهم : ألست أنا اخترتكم .. وواحد منكم شيطان ! » .

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء فى انجيل يوحنا : « قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم فى كلامى كنتم بالحقيقة تلاميذى ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيدا لأحد فكيف تقول انكم ستصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق أقول لكم أن كل من يعمل للخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى فى البيت أبدا . انما يبقى فيه الابن الى الأبد . فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا .. أنا عالم انكم ذرية ابراهيم . لكنكم تريدون قتلى لأن كلامى لا يقع منكم موقعا ..

أنا أتكلم بما رأيت عنــد أبى وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم . فأجابوه : ان أبانا ابراهيم . قال : لو كان أباكم لعملتم عمله ولكنكم الآن تطلبون دمى وأنا انسان كلمكم بالحق الذى ســمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمــال أبيكم . فقالوا له : اننا لم نولد من سفاح لنا أب واحد هو الله . قال : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت اليكم . اننى لم آت من نفسى بل هو أرسلنى ... أنتم من أب هو ابليس ... » .

فأجابه اليهود : « لحسن تقول انك سامرى بك شيطان . وبعد ان قال لهم : ان من يحفظ كلامى لن يرى المــوت عادوا يقولون الآن تبين لنا أن بك شــيطانا . قد مات ابراهيم وأنت تقول : ان حفظ أحد كلامى لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذى مات » .

والعبرة من هذه القصة أن السيد المسيح مضى فى دعــوته زمنا ولم يذكر لتلاميذه أنه هو المسيح الموعود ، وأنه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لا يدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز ، وأنه أشفق يوما أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : انما بنــوة الله بالأعمال وانما أنتم بأعمالكم أبنــاء ابليس !

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه الى الأبد ، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التى ليس فوقها غاية فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون

الأمل في الخلاص من هذا الطريق ، فاولئك على علاتهم خير من المتلمذين الذين يسبقون الفهم ويستكبرون وياتمرون به ليقضوا عليه .

* * *

والشائع أن التلاميذ كانوا طائفة من صيادى السمك فى بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عند أناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع أنهم فى طبقة عمال الصيد الاميين ، ولكنه فهم متعجل مبنى على قياس غير صائب . اذ الواقع أنهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات ، لم يبلغوا فى العلم مبلغ الفقهاء فى زمانهم ، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لراكبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدى والمكابرة . ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الامية الجاهلة فى الغباء ، وكان منهم من نسميه فى عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه ، وقدرته على كتابة انجيل « باللغة اليونانية كما هو الأرجح » قدرة لا تتأتى لغير المثقفين ومنهم يوحنا الذى ينسب اليه الانجيل الرابع ، وهو ابن خالة المسيح أو من بنى خؤولته ، وكان صاحب عمل ناجح فى تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من انجيل مرقس حيث يقول : أنهما تركا أباهما فى السفينة مع الاجراء وذهبا وراء السيد المسيح .

ومنهم جيمس قريب المسيح ويوحنا و « ابن الرعد » كما سماه المسيح لقوته فى الانذار وتشديد النكير ، ومنهم بطرس وهو متكلم جرىء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الانجيل ، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس فى أمر الدعوة ، وأكثرهم واجه الموت فى

عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوى البأس والسلطان .

وقد استمالت الدعوة اليها فى عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ فى فقه الدين عالم بالتواريخ ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا إلى الدعوة عطفا على التلاميذ المجاهدين الذين تكلفت بهم السطوة الغاشمة ، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل المحاسة الروحية فى تقويضه أو الاجهاز عليه .

* * *

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعيا الى الفوضى السياسية متحللا من النظام ، لشدة انحسائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها ، وفاتهم أن الشريعة الفاسدة فى أيدى الجامدين أو المنافقين هى الفوضى فى صورة أخرى ، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضيين ولا أعداء النظام .

أما البينة فى الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه الاعمال فى مجتمعه الصغير — مجتمع التلاميذ — بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب الجماعة ، وراع يرعى القطيع فى غيبة السيد ، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين .

وادخل من هذا فى باب التنظيم انه اختار أولا اثنى عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين واوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين فى كل اتجاه ، وانهم حين عادوا من رحلتهم اخذهم ناحية فى الجبل ليستمع منهم ويراجع اعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والارشاد .

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين ، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التي يتحطم عليها نظام كل جماعة .. وهى فتنة التنافس على الرئاسة ، فعلمهم أن الأول فيهم هو خادمهم الأول ، وضرب لهم مثلا غدا فى تاريخ الدعوات ليوقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم فى محفل ليغسل أقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم أول الأمر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التى عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد أنهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه فى غسل الأيدى والرءوس .

وحصر جهده كله فى تعويدهم « انكار الذات » وهو فضيلة الفضائل فى الأعمال العامة ، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التى يدخلونها لدعوة أهلها ، ولكنه قال لهم : « لا تحملوا كيسا ولا مزوداً ولا أحذية ... وأى بيت دخلتموه فقولوا سلام .. وأى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم » .

وكرر لهم الوصية بالبساطة فى العمل والكلام فأمرهم « الا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون فى تلك الساعة ما يقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم » .

ولم يخف عنهم أنهم ملاقون ويلا من الناس فليكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . أما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح .

وقد أثمرت رياضة الحب فى تدريب هذا الجند الروحانى ما لا تثمره رياضة القسوة والصرامة فى تدريب جنود القتال

فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء فى أداء الامانة يصغرهم أمام أنفسهم ، ويصغرهم أمام الله ، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار .

وما هو الا ان حان موعدهم ليعملوا وينتشروا فى الأرض حتى خرجوا الى كل وجهة وأبعدوا الرحلة فى كل مكان معمور ، فمنهم من وصل الى جزر الهند الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل الى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول أندراوس ، ومنهم من شغل بنفسه فى البلاد الاوربية فأرسل صحابته الى أفريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق ، فضلا عن الدعوة فى فلسطين .

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب « الأمم » فى الجليل وآسيا الصغرى والاسكندرية ، وأفادهم التمهيد الذى سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية فى تنظيم الدعوة ، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون ، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا فى كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنا يصح أن يقال أن الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التى سبقتها فى العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذى أصابوه ملحوظا فى آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ .

كذلك يبدو أثر « الحالة العالمية » فى انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت فى كل أمة . فقد كان المدعوون الى الدين الجديد من جماهير الناس سراعا الى القبول ، حراصا على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل «السلطة» الغالبة ، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله .

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ الى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة بغير تقية ، فكان بطرس فى انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانيــة وحذره من مخالفة الدعوة فى ســبيل مرضاة الناس .

على أن بولس نفســه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال فى سفر كورنثوس الأول « ... استعبدت نفسى للجميع لكى أربح الأكثرين ، وصرت لليهــودى كيهودى لأربح اليهــود وللناموسيين كالناموسيين ولغيرهم كأننى بغــير ناموس ... صرت لكل كل شىء لعلى استخلص من كل حال قوما ... » .

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا الى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها ، وشملهم الاغضاء حينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد .

ومن بدع القــرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظــروا فى تواريخ الأقدمين فوجــدوا فى كلامهم أنبــاء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان ، أو أعاجيب النقــل والرواية ، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام لأنه أصــعب تصديقا من القــول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمــد الكذب والاختلاق ، فشتان عمــل المؤمن الذى لا يبالى الموت تصــديقا لعقيدته ، وعمل المحتال الذى يكذب ويعلم انه يكذب وانه يدعو الناس الى الأكاذيب ، مثل هذا لا يقدم على الموت فى سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيهات أن يوجد بين

الكذبة العامدين من يستبسل فى نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون . فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين الى التصديق فأقرب القولين الى التصديق أن الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود فى كل زمن أن يصدق الانسان عيانا ما يصدقه فى قرارة نفسه ، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل .

وليذكر ادعياء التمحيص فى عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل فى القرن الأول للميلاد أن يكذب انسانا لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق . ومن التكذيب لغير سبب فى ذلك العصر أن يبادر السامعون الى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه فى عصرنا هذا بمن يكذب انسانا لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق .

ان اسخف السخف أن يقال أن دينا من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق لأن تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه ايمان كأقوى الايمان ، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل ، ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذى تلقى به الناس رسل المسيحية، لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة . ونظروا امامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين فى مقاصدهم ، فاصغوا اليهم وآمنوا كايمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن اقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور .

الأناجيل

الانجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة ، وقد تداول المسيحيون فى القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع — اى بكثرة الأصوات — وهى انجيل مرقس وانجيل متى وانجيل لوقا وانجيل يوحنا ، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة فى العهد الجديد .

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل ، ومنهم من يسمى هذه النسخة « لوجيا » Logia بمعنى الأقوال ، ويردون بها الأقوال الشفوية التى سمعت ثم كتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا فى بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخة المفقودة .

أما الأناجيل الموجود الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ فى ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعانى والمفردات ، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوى كل ما فاه به السيد المسيح ، اذ جاءت فى أعمال الرسل التى تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد فى الأناجيل وهى « تذكروا كلمات المسيح : ان العطاء مغبوط اكثر من الأخذ » . . . وجاءت فى الأناجيل الأخرى التى لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية فى مصر ترجع الى منتصف القرن الثانى لا تشبه الأناجيل المعتمدة فى نصوصها .

وتتفق الآراء ايضا عن أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهما

نسخة مرقس التى دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع فى كتاب ، وقد كتبهـا فى رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين .

والنسخة الأخرى هى نسخة لوقا صاحب بولس الرسول ، دون ما فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه ، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين .

أما انجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة : واكثر النقاد على أنه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون أنها بقلم يوحنا آخر كان فى افسس ولم ير السيد المسيح . . لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقـوال فى سنة ست وتسعين ، ولا يظن أن مؤلفـا واحدا يكتب فى وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين فى المنهج والفحوى .

على أن الأب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل ، وأنه كتبه أولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله الى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذى كتب فيـه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل ، وزيادته فى التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه فى شرح العقائد التى أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن أنه كتب قبل سنة ست وتسعين .

والترتيب المفضل عند المؤرخين ان انجيل مرقس هو اقـدم الأناجيل ، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا ، وهى الأناجيل الثلاثة

التى اشتهرت باسم أناجيل المقابلة ، لامكان المقــابلة بيـين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت فى الأصل مرسلة بغير اقسام وبغير مواضع للوقت والالحاق ، ولم تقسم الى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد

وليس من الصواب أن يقال أن الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها فى تاريخ السيد المسيح ، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب فى الزمن والمكان ، ولأنها فى أصــلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولانها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين ، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال .

وانما الصواب انها العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ ، اذ هى قد تضمنت أقوالا فى مناسباتها لا يســهل القول باختلاقها ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينهـا وبين مثاراها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع الى أسباب هذا واسباب ذاك .

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة . ويؤدى عباراته اداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الاول للميلاد .

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخــاطب « الأمم » ولا يتحفظ فى سرد الأخبار الالهية التى كانت تحول بين بنى اسرائيل « المحافظين » والايمان بالالهية المسيح .

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه الى سر كبــير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الانسانية . ويحضر فى ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية .

وانجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبداه بالكلام عن « الكلمة » Logos ووصف فيه التجسد الالهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة

وسواء رجعت هذه الأناجيل الى مصدر واحد أو اكثر من مصــدر ، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها هى العمــدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفى سنة عمدة أحق منها بالاعتماد .

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين ايدينا مرجعا أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة باطــوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع فى مراجعتها طريقة غير التى درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار ، فلا نراجعها من حيث هى وقائع تاريخية ولا من حيث والأخبار ونسأل عما وراءها من الابانة عن شخصية الرسول . وفى هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصــودة ... فهل وراء هذه الأخبار « شخصية متناسقة » مفهومة ؟ ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبــار ، وعلينا أن نفهم هنا ان النقائض فى هــذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أســباب الشك والانكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفســها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية ، فما خــرج من السواء فهو فضول .

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريــقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها الى الغرائب هنا شىء يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا ، فان خلو هــذا التاريخ

من الغرائب هو الذى يستغرب وليس هو المألوف الذى يدعو الى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون فى وجودها ؟

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت فى تواريخ الأديان ، فنحن نسأل هل هذه المعجزة لازمة فى تفسيره مسألة من المسائل ؟ فان كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا الى الجدل فى امكانها أو استحالتها ، لان التفسير الذى يقبله كل انسان يغنى عن التفسير الذى يضطرنا الى امتحان الممكنات وامتحان الرواة .

أما رأينا نحن فى امكان المعجزات فهو رأينا فى امكان جميع الأسباب . فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها . وليس من العقل أن يقال أن هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هى العوامل الفعالة فى ايجاد الأشياء ، وأصح ما يقال فيها قول الغزالى رحمه الله ان الاسباب والمسببات تحدث معا . ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الأوقات . والا لزم أن تكون المادة الوفا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم . فاذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن نعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها .

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب : هل هى لازمة لتفسير هذه المسألة ؟ وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا : هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير ؟ وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وعبر الأديان .

ونحن لم نتعرض للمعزجات التى وردت فى الأناجيل لأن تفسير الحوادث منســاق لنا بغيرها ؛ فليس فى الأناجيل ان معجزات الميلاد حملت أحــدا على الايمان بالرسالة المسيحية بعد قيــام السيد المسيح بالدعوة ؛ وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ؛ وأن الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ؛ وأن المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا ولكنهم كانوا يزعمون أنه من فعل الشيطان . بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح انه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات .

وبعد فمن الحق أن نقول أن معجزة المسيح الكبرى هى هذه المعجزة التاريخية التى بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها فى عصر الميلاد : رجل ينشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع فى أطوائها دولة الرومان ولا ينقضى عليه من الزمن فى انجاز هذه الفتوح ما قضــاه الجبابرة فى ضم اقليم واحد . قد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع النير ؛ ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والاحساس .

الباب الرابع

الختام

عنى الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث فى سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل ، ولكنهم لم يصلوا الى ترتيب متفق عليه ، لأن سياق الحوادث مختلف فى الأناجيل الأربعة ، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها فى أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التى وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث .

على ان حوادث السيرة فيها ما يظهر منه أنه مقدمات وما يظهر منه انه نتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية فى خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التى يمكن ان تضاف الى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذى تدور الحوادث عليه .

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية .

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين ، احداهما حادثة السفر الى مصر وهو رضيع ، والأخرى حادثة السفر الى بيت المقدس وهو فى الثانية عشرة من عمره .

روى الحادثة الأولى انجيل متى فقال أن « ملاك الرب ظهر ليوسف فى حلم قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واهرب الى مصر .. لأن هيرود مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه ، فقام وأخذ الصبى

وأمه ليلا وانصرف الى مصر ، وبقى فيها الى وفاة هيرود » ثم قال : « وقتل هيرودس جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونهما » .

ولم يذكر خبر هذه المذبحة فى غير انجيل متى ، ولا يعرف الآن سبب وجود الاسرة فى بيت لحم — وهى من الناصرة — لأن الاحصاء الذى اشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل أسرة الى منبتها قد تقرر فى السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس .

أما الانجيل الذى توسع فى وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذى روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به الى بيت المقدس : « فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع .. » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به الى اورشليم ليقدموه للعرب .. ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخى حمام » وهى القربان المقبول من الفقراء .

قال انجيل لوقا : « وكان أبواه يذهبان كل سنة الى أورشليم فى عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى اورشليم كعادة العيد ، وبقى الصبى عند رجوعهما فى أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان . واذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الاقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا الى أورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة أيام فى الهيكل جالسا فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وإجوبته ، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه : يا بنى . لماذا فعلت بنا هكذا .. فقال لها : « لماذا كنتما تطلبانني ؟ الم تعلما حيث ينبغى أن أكون فيما لابى » . فلما يفهما الكلام الذى قاله

لهما ، ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما ... وكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » .

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبى بعد ذلك الى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفـرة الخطـايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل الى الاردن ليعتمد منه — كمـا ورد فى انجيل متى — فمنعه يوحنا قائلا : أنا محتاج أن اعتمد منك وأنت تأتى الى ؟ فأجابه يسوع تسمح الآن ، لأنه هكذا يحمل بنا أن نستوفى كل بر . فسمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من المـاء ، واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوت من السماوات يقول : هذا هو ابنى الحبيب » .

وفى انجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة — وهو انجيـل العبريين — رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها أن أمه واخوته قالوا له أن يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا . فقال لهم : « اى خطيئة جنيت حتى اذهب اليه لتعميدى ! اللهم الا أن يكون هذا القول الذى قلت » .

وليس فى الأناجيل ولا فى غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح فى طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس الى نظام التربية فى ذلك العصر يبدأ فى مكتب ملحق بالبيعة فى كل قرية كبيرة يشرف على بيعتهـا « حزان » أو « خزان » بمعنى الخـازن والحـارس ، ويندر فى المكتب حصـول التلميـذ على النسـخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها فى الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار .

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى فى ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر ، وقد سمى الطفل يسوع أو « يهوشع » علـى هذا الأمل ، لأن الإسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سـعى « يهوا » أو نجدة « يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الاسرة الى بيت لحم عند مولده ، لأنها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد فى أسفار من النبوءات أن بيت لحـم هى مولد المسـيح الموعود ، لأنها موطن داود .

ولا يبعد أن الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى واستمع الى شىء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره ، فتاقت نفسه الى استيعابه ونسى أهله وموعد عودتهم الى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأخبار .

ويغلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وأن يوحنـا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سـيرته قبـل أن يلقاه فى الأردن عندما تصدى لرسالة التعميـد ، وهى بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد .

ومن البديهى أن كلمات يوحنا الفتى ابن الثلاثين فى سـاعة التعميد لم تذهب بغـير صداها فى نفسه الواعية ، فمن أيسـر آثارها فى مثـل تلك النفس أن تعزز فيها الأمـل وتدعم فيهـا اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجـوه ويرجى منها بين البشـائر والنـذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان ، وعلى كل لسان .

وخلوة البرية هى احـدى نتائج تلك التحية النبوية ، وهى خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التى عالجها كل

نبى قبل ان يصدع بما أمر به ، وقبل إن يستيقن أن ما أمر به من عند الله .

ونعتمد فى وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول : « انه عليه السلام بعد أن صام فى البرية اربعين نهــارا واربعين ليلة جاع اخيرا فتقدم به المجرب وقال له : ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا . فأجابه : مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكلمة تخرج من فم الله . ثم اخذه ابليس الى المدينة المقدسة واوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لأنك موعود أن يوصى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع . ومكتوب أيضا الا تجرب الرب الهك . ثم اخــذه ابليس الى جبل عال وقال له أعطيك هذه جميعها ان سجدت لى .. قال يسوع : اغرب عنى أيها الشيطان ، فانه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد .. » .

قال انجيل متى بعد ذلك : ولما سمع يسوع أن يوحنا اسلم لهيرود انصرف الى الجليل وترك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، وابتدأ رسالته داعيا الى التوبة ، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية كما أسلفنا . فكانت ســيرة الفتى المؤمن قبــل ذلك اللقاء تأهبــا واستعدادا واملا ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحــانا وعزيمة ، وردته كلمات النبى النذير الى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه الى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس له التجربة ان يطلب الآية ويلمس الدليل ، وكل تجربة من هذه التجارب التى مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بهــا فى كتب

القدامى من البشائر والمواعيد : ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذى ينظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء فى طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقى لمن يطلبه كحجارة الطـريق ؟ ألم يكن من مواعيـد المسيح أن يقبل على السـحاب محمولا على أجنحة الملائكة ؟ ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ ... كل تجربة من هذه التجارب كانت هى التجربة التى تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية ، واقفا على قمة الايمـان وشفا الهاوية فى لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسـد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يسـاوم على البرهان .

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحى نبـوى بالرسـالة المسيحية ؟

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت فى نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل ، وأن فترة الخلوة فى البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخـلاص الحقيقة من أعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للاقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الابهام والاحجام .

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان فى نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة فى البرية ، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة ، أو يفسر لنا منهاج الايمان بدواعى العمل فى ضميره السليم .

انه اذا اقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التفكير فيه ، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى

يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله ، وعندئذ يبادر الى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لأن العامل الذى يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان ، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبــل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده ، وبخاصة حين يبدو للنفس أن الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الامان . فالخطر اذن أحب من الشك، وكل شيء اذن أسلم من الامان الذى لا يأتى الا بضمان من البرهان.

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجديد به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق ... ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجرى بعد ذلك كله هو ارادة الله .

خرج السيد المسيح من العزلة الى الرسالة ، ولم يقل لأحد أنها رسالة مسيح ،، بل سكت عن ذلك حتى تسامع النــاس بدعوته واصبح له أكثر من ثمانين تلميــذا يبشرون برســالته ويستمدون الهداية من وحيه .

واصطبغت رسالته الأولى فى الجليل بصــبغة مميزة وهى صبغة الرسالة القومية الى اسرائيل ، وحرص عليه الســلام أشد الحرص الا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضى فى خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التى انتقل بها من العزلة الى الدعوة بين بنى اسرائيل ، فهــذه الخطوة التاليــة هى الدعــوة الانسانية العــامة وهى استخارة للحوادث واستلهام للغيب فى ميدان أوسع وأبقى ، وعلى الصفة التى

ثبتت له فى طوية ضميره وهداه اليها وحى الله ، ولم يبق الا ان تؤيدها حوادث القدر كيف تشاء .

اما الصفة التى ثبتت له عليه السلام فى طوية ضميره فقد تكررت فى كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرامة الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الانسان .

والابوة الالهية قد وردت فى مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء فى سفر التكوين أن الملائكة ابناء الله « وان ابناء الله راوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات » (٦ تكوين) .

وورد فى كلام موسى عليه السلام ان بنى اسرائيل جميعا ابناء الله حين قال لفرعون « دع ابنى يخرج » ووردت بهذا المعنى فى كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه « انتم ابناء الله » (تثنية ١٤) وأشير الى الشعب كله بانهم ابناؤه وبناته (٣٢ تثنية) .. ووردت كذلك غير مرة فى المزامير حيث قيل « قدموا للرب يا ابناء الله » (٢٩) و « من يشبه الرب بين ابناء الله » (٨٩) .

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب « انتم ابناء الله الحى » .

أما فى العهد الجديد فمخاطبة الله باسم الاب وردت فى الصلاة التى تبتدىء بدعاء الله « أبانا الذى فى السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ أن « اباكم واحد هو الذى فى السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله .

أما ابن الانسان فقد وردت فى كتب العهد القديم باللغة الارامية وباللغة العبرية ، وهى بالارامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان ، وهى بالعبـرية « ابن آدم » وتطلق فى كلتا اللغتين على الانسان الخالص أو على الانسان من حيث هو

نوع يقابل انواع الأحياء .

وقد وردت تسعين مرة فى سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فينـــاديه بابن الانسان .

ووردت مرة فى سفر دنيال بلسان جبريل وهو يخاطب النبى باسم ابن الانسان (٨) .

ووردت فى هذا السفر باللغة الارامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيـــوانات ثم ينبىء عن رسول يأتى فى صورة انســـان رآه النبى فى رؤى الليل « على سحاب كابن انسان » جاء بسلطان لن يزول .

أما فى كتب العهد الجـــديد فقد وردت فى مواضـــع بمعنى « الانسان » منها قول السيد المسيح فى انجيل متى « كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له ؛ وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هـــذا العالم ولا فى العالم الآتى » (١٢) .

وقد جاءت احيانا مرادفة لضمير المتكلم « أنا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء فى لوقا ١٢ ... « كل من أعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله » وجاء فى متى ١٠ « كل من يعترف بى قدام الناس أعترف انا أيضا به قدام أبى الذى فى السماوات » .

وورد فى متى ١٦ « انه لمـــا جاء يسوع الى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى انا ابن الانسان ؟» .

وورد فى مرقس ٨ « ثم خرج يسوع وتلاميذه الى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميـــذه قائلا : من يقول الناس انى انا ؟ » .

فهى فى بعض الاناجيل مرادفة [illegible] يتكلم السيد عن نفسه ، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد [illegible] استخدامها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان .

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها فى نبوءة دنيال حيث قال « كما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء العالم ، يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » (متى ١٣) .

وهى اشارة كاشارة دنيال الى يوم الدينونة ، وصيغتها بالآرامية واحدة فى الموضعين .

هذه هى الأسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى أبان دعوته الاولى أو عند نهايتها ، وفى أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول : « لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحدا صالحا الا واحد ، وهو الله » .

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه . فلما قال له بطرس انك انت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان .

وغنى عن القول أن هذه الأسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها فى ذلك الجيل ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الانسان » .

* * *

لو جرت الأمور فى مجراها الذى استقامت عليه الدعوة فى الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة فى طريقها سنوات دون أن تشتبك فى حرب صريحة مع دولة الكهانة فى بيت المقدس .

ولكن الحوادث حكمت حكمها فى السـنة التى تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الاسر اليهودية ، ومنها اسرة السيد المسيح : امه واخوته وذوو قرباه .

وكان عليه السلام يجارى أسرته فى هذه الشـعائر التى لا ضير فيها ، ولم يكن يضيق على الناس فى المحافظة على المأثورات التى تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبـادل التهنئات ، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشـوف ، وفيما عدا هذا كان يشـارك أسرته فى افراحها القوميـة ويذهب الى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرضة التى كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بنى اسرائيل .

وفى سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه فى احدى السنوات منذ بشر برسالته فى الجليـل ، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود الى الجليـل دون أن يحس زيارتهم سـدنة الهيكل وذوو الشأن فى العـاصمة الدينيـة ، ودون أن يشتبك الفريقان فى نضال .

لكن كيف يكون الذهاب الى بيت المقدس فى هذه السنة ؟

أنه لا يذهب الى العاصمة هو واصحابه كما كانوا يذهبون فى السنوات الماضية .

انهم يعدون الآن بالالوف فى انحـاء الجليل ، واذا قـدرناه أن نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التـلاميذ فالمسـيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون .

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم الى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذى يحج معهم الى المدينة ؟ ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟

هنا موقف من المواقف التى نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث .

أيذهب الى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والاتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذى لا يسهل معه التخفى والاستتار .

وماذا يقع من اثر التخفى والاستتار فى نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم تقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم فى الخفاء ، وتستتر لسبب من الأسباب ، فضلا عن السبب الذى يسبق الي الاذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب الى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين ، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين .

وأدل شيء على أن الموقف الاخير فى الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح فى أمثال هذه المواقف — موقف استخارة الحوادث — أنه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلى ويناجى ربه قائلا : « اعبر عنى هذه الكاس يا ابتاه .. كما تريد أنت لا كما أريد » .. ثم ايقظ تلاميذه النيام وقال لهم : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف » .

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لا بد أن يواجهوه ، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم انهم غزوة فتح تنجلى عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية ، فليوطنوا أنفسهم اذن على أسوأ ما يكون ، بل لا ييأسوا اذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم اذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع ، فهذا الضعف مقدور يتبعه لا محالة نصر قريب .

وتروى الأناجيل أنه عليه السلام دخل الى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء فى بعض النبوءات عن مركب المسيح الموعود ، وانهم كانوا يحملون السعف أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذى يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به فى المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد الى آخر الزمان .

ويفهم من وصايا السيد المسيح انه ظل فى بيت المقدس يرعى للكهاء والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم لعى ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففى احدى هذه الوصايا يقول مخاطبا الجموع والتلاميذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » .

ولم تسمع منه فى رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطته لنفسه فى حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سمع منه فى بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذى يدعو اليه - وأنه من غير هذا العالم ، ولا شأن له بسلطان السبحان والعروش .

***

الا أنه من اللحظة الأولى فى بيت المقدس لمس مكامن الاشراك التى ترصد له فى كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التى كانت تنهـال عليه أن القوم يأتمرون به لاهلاكه ، اذ كانت هذه الأسئلة جميعا تنزع الى هدف واحد وهو استدراجه الى كلمة تثبت العصـيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه فى مواضع العنت والاحـراج تستند الى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يسـتره من حجب الرياء ، ولا يبعد أنه قـد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصـيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو — نيقوديموس — كان يزوره ليلا ، وعله واحد من كثيرين .

ثم حدث ما لا بد أن يحدث فى عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمـرين وأناس متجردين لدعـوة جديدة يتطـوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل فى معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت الى معـركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائـد الصيارفة وباعة الضـحايا وصـاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم انهم فى بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة الى مغارة لصوص .

وكانت هذه هى الوقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريرا للموقف على وجه من الوجوه ، فامتلأت الصدور الموغرة واتخذت من درء الفتنة ذريعة الى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذى تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة .

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة .

فليس للتاريخ كلمة راسخة فى خبر من الأخبار التى أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش والنكاية .

ففى حادثة الاعتقال لا يدرى متتبع الحوادث من أعتقله ومن دل عليه ، وهل كان معروفا من زياراته للهيكل او كان مجهولا لا يهتدى اليه بغير دليل .

وفى حادثة المحاكمة يجرى الخبر على انه حوكم بالليل وصدر الحكم فى يوم واحد ، ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر فى قضايا الدم بعد جلسة واحدة فى يوم واحد ، ولا ينفذ الحكم فى هذه القضايا الا اذا صدر بالاجماع .

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على انه قد تم على الرغم من اعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه ، ويقول انجيل يوحنا أن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة ، ويقول انجيل مرقس أنها كانت الساعة الثالثة فصلبوه » .

وقد بحث الاستاذ ريشارد هزباند Husband فى كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح فى خمس سنوات من سنة سبع وعشرين الى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين أنه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ، والأخبار تجرى على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر ابريل . اما السنوات الأخرى غير سنتى ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الاربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين .

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زلزلت وان القبـور تفتحت وخرج منها القديسون فتح فى اليوم التالى فلم توجـد .

وروى نقلة الأخبار أن القبر يمشون بين الناس فيه جثة ، وأن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا انه طيف « جسونى وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام » ... « وسألهم أعندكم هنا طعام ؟ فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا .

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من اقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلى Cheyne والأستاذ هنريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعـــة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية فى مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجو تول Toll السويدى وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا الى التفـرقة فى أخبار هذه الفترة بين وجهـة التاريخ ووجهة الاعتقاد .

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله فى هذا الصدد ، لأنه محل نظر كبير ، وهو خبر الضريح الذى يوجد فى طـريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هنـاك ضريح النبى أو ضريح عيسى ، وروى تاريخ الأعظمى الذى دون قبـل مائتى سنة أن الضريح لنبى « اسمه عوس آصاف » ويتناقل أهـل كشمير عن آبائهم أنه قدم الى هذه البلاد قبل الفى سـنة ، وينقل المولوى محمد على فى ترجمته للقـرآن الكريم عن كتـاب عربى يسمى « اكمال الدين » محفـوظ من الف سـنة عن اسـم « عوس آصاف » مذكور فيه وانه قال عنه انه رحالة سـاح فى بلاد كثيرة ، وأن كتاب « برلام ديو شافاط » فى صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف انه صاحب « بشرى » وأنهم يحفظون مثلا من أمثاله فى تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والبذور .

ولقد أورد المولوى محمد على هذا التعليق فى تفسير الآية الكريمة : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » وأورد تعليقا يقرب منه فى تفسير قوله تعالى « انى متوفيك ورافعك الى » وغيرهما من الآيات القرآنية التى تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام .

***

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية فى تواريخ الأزمان قاطبة . ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا أن نوفق لزيادة شىء الى هذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى ، ولا حاجة بنا فى هذه الصفحات الى اثارة الجدل فى مسائل لا ترتبط بالمقصد الذى قصدناه وقصرنا الرسالة عليه .

ولا نستطيع كما أسلفنا ان نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق أنها انتهت فى موعدها حيث اسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التى تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة الى هداية الهية تحيط بكل من يهتدى من بنى الانسان ، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الاثرة العصبية وتداعى الهيكل الذى اعتصمت به وتجددت فيه ، ثم قامت للضمير الانسانى دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، ولحكمة ما الهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان .

الغاية بعد كل ختام

فى احدى روايات الكاتب الروسى العظيم ــ دستيفسكى ــ بطل من ابطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الأرض فى طوفة عابرة ونزل بأشبيلية فى أبان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وانه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش ــ المفتش الأعظم ــ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويدعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق .

ويأتى المساء فيذهب المفتش الأعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : اننى اعرفك ولا اجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات فى سبيلنا ؟

ثم يقول له فيما يقول : انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم ... والآن وقد عرفنا نحن داءهم واعفيناهم من ذلك التكليف ، وأعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

ليس اثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه فى الوقت نفسه انه قد أطلقها له وفوض اليه الأمر فى اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع الى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

انك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده ، وليس فى عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث أتيت ، والا أسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك باياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذى لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين .

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التى تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار : ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم الى المفتش الأعظم — وهو شيخ فان فى التسعين — فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم فى خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذى يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال فى هذا الخطاب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه .

كلا . ان الخيال فى ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شىء الى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم فى نقمته على الرسول الكريم .

وأقرب شىء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح الى الأرض ، أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما فى الضمائر لا بما تنوه به الالسن

ويبدو على الوجوه ، وأن الوحى الحى فى طوية الانسـان لا فى طوايا الكتب والأوراق .

اقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبـل الف وتسـعمائة سنة ، وأن يجد انسـان اليوم كانسـان الأمس فى شروره وعداوته ، وفى نفاقه وشقاقه ، وفى أعراضـه عن اللباب واقباله على القشـــور ، وفى استعلائه بالتقوى حين يتقى ، ولجاجه فى الجحود والعـــدوان حين يجحد ويعتدى ، خمرا جديـــدة فى زق قديم .

ذلك اقرب شيء أن يكون .

واقرب شيء أن يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسـان قول أبى العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدى الى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشـــهداء ؟ وفيم يأتى الأنبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون؟ فيم كل هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان .

جاءوا وعادا :

وانصرفوا والبـــلاء باق ولم يزل داؤنا العيـــاء

لئن قيل هذا ليكونن اقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التى جاءت فى صورة الخيال :

ولكن الحقيقة الكبرى التى توزن بها جميع الحقائق هى أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التى تخلد على الزمن فى أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه انى يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المســافة ، يرحل اليــه الانسان ، ثم يصل اليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عنــاء .

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوط بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر فى مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه فى سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القيــاس الصحيح فى هــذه المشكلة ، وهى أولى بان ندركها من المطالب الخفيــة التى تعتلج بالضمير وتبتعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يحسر فلا يرى غير الحجب والظلمات .

منذا يقول أن عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامســة ، ورآه يحمله وهو فى العاشرة ، ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضــاء .

منذا يقول أن عناء الطب باطل اذا رأى النـــاس يمرضـــون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشـــفاء .

منذا يقول أن الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا فى محسوساتنا التى تلمحها ونلمسها ، فهــل نقوله فى غاية كحرية الضمير هى سر الاسرار فى حياة الانســـان منذ كان وانى يكون ؟ .

ليست العبرة أن الشر واقع . ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواتمه أو كيف نتقيه .

واذا وقع اثنـان فى الشر ، فليس الذى وقـع فيه وهـو مستريح اليه مستزيد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضـطر اليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

انما الانسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضـمير ، وانما يقاس ضمير الانسـان بالقيم التى يقومها والمثل العليا التى يتمثلها، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغلبها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون ، وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء .

واذا قلنا يوما أن الانسـان فى هذا العصر يطلب الخـير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين انه أفضل من الانسان الذى كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف ، كمـا يعمل الحيوان البهيم .

انما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان فى حرية الضمير أو فى حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الانسان يوما عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون الف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى فى العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم اذا اعتقـدوا أن دينا من الأديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى ، باق فيها الكفران .

اى فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لاتعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة فى «الألفية» الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لانهم يفكرون وينتظرون « الألفية » .. وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين اتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا الى يصنع فيها الهداة صنيعا كثير خير من الدنيا التى لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هى شوط الضمير الذى لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس فى العصر الحديث — ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم — ان عقيدة الانسان شىء لا يأتيه من الخارج فيتقبله مرضاة للداعى أو ممتنا عليه ، ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للانبياء بها الا لأنها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها، فلا فراغ من أمر العقيدة الى آخر الزمان.

الفهرست

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى خمسون قرشاً

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

